السامرى

شعاع النور

808.83 A51A

العامرى ، محمد أديب .

شعاع النور و قصص أخرى .

808.83
A51A

NOV 17 '62

24 JAN 1975

JAREER LIB.
25 JUL 1978

808.3
A517sA

محمد أديب العامِرى

شعاع النّور

وقصصٌ أخرى

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

الإهداء :

إلى روح أمى

التى شقيت ليسعد غيرها

مقدمة

ليس الأمر احترافاً للقصة أو انصرافاً إليها ، ولكنه إشارة إلى ما كنت أحب أن ينصاع له هذا الباب الأدبى من مثَل وهدف فى هذه الفترة الراهنة من تاريخ الدنيا ، لو قدر لى أن أحترف القصة أو أنصرف إليها .

ولذلك سبب ؛ فإن الحياة كما درجت إلى اليوم يمثلها أشخاص هذه الأقاصيص أكثر مما يمثلها أى شىء آخر ، وهؤلاء فى الغالب قد انحدروا إلى مستوى موئس من الحياة . ولكنهم لا ييأسون ، فإن هنالك شعاعاً من النور ينظم سيرة الحياة مذ كانت ، وهذا الشعاع ذاته هو الذى يومض فى نفوس هؤلاء الناس الذين أقدمهم إليك وأصلهم بك ، فيحملهم على الصبر والأمل والنضال ورفع مستوى الحياة شيئاً فشيئاً .

ولولا هذا الوميض الذى يستمد نوره وحرارته من طبيعة الحياة الخالدة المتسامية ، لما كان سبيل هؤلاء الناس إلا أن يتلاشوا فى العدم .

ولكنهم لا يتلاشون ؛ بل يستمرون فتطرد الحياة بجهدهم نموًّا ورقيًّا ، إلى أن تصبح جديرة بحياة « الناس » .

عمّان

١ / ٩ / ١٩٥٣

الفهرس

القصة	الصفحة
١ – شعاع النور	١١
٢ – ليلة فى الخريف	٢٠
٣ – فقير	٣١
٤ – الحرب	٣٨
٥ – صوم دائم	٤٦
٦ – الجندى المشوه	٥٤
٧ – بين الحرمين	٦١
٨ – ملاك الحب	٧٠
٩ – ثراء . . . وشرف	٧٧
١٠ – يوم الميلاد	٨٢

شعاع النور

فتحت الأم عينيها صباح ذلك اليوم منطلقة الروح بادية البشر تكاد نفسها تفلت من جوانحها خفة وأملا ونشاطاً .

وأحست فى نفسها ذلك وعجبت منه ، فقد كانت دائماً تنهض كئيبة النفس كسيرة الفؤاد . لكنها نهضت ذلك اليوم مسرعة ناشطة وتناولت المرآة فنظرت فيها ، فافتقدت التجهم الذى يغشى محياها وبعض التجاعيد التى أخذت السنون الأخيرة تخطها على وجهها . ولقد تساءلت فى نفسها عن سبب مرحها ذلك الصباح ، كما كانت تتساءل دائماً عن سبب هذه الكآبة الملازمة والانكسار الظاهر ، فتعزوه إلى أنها فقدت زوجها قبل الأوان وإلى أن الدنيا خلَّمتها وحيدة لا تعينها فى شىء على حاجات ابنها وابنتها .

وأرادت أن تطرد من رأسها فكرة الحزن ، لتستسلم إلى البشر والمرح والانطلاق الذى أفاقت عليه ذلك الصباح ، فأيقظت ابنتها واستعادت ما أفاقت عليه فقالت :

ـ اسمعى يا جميلة ! لقد رأيت فيما يرى النائم شعاعاً من الضوء لم أر له مثيلا من قبل . شعاعٌ قوىٌّ وهّاج يمتدُّ من نقطة فى الأفق ، ويتجهُ إلى كل مكان فى الجو ، فيحيل ظلامه إلى نور وقتامه إلى إشراق ووهجة . ورنوْت إلى مصدر الضوء الذى كاد يزيغ بصرى فلمحتُ وجه شاب مقطب الجبين حديد النظرات يمتلئ عزماً وقوة . وتفرست فى الصورة أستوضح معالمها لكن الصورة لم تكن واضحة المعالم . كانت أقرب شىء إلى صورة عزمى

أخيك . كأنها صورته يا ابنتى . أفقت من نومى مسرورة فكأنى رأيت أخاك بعد كل هذه الغيبة الطويلة .

استمعت جميلة إلى هذا وهى ما بين اليقظة والنوم ، فإنها لم تكن تعرف النهوض مبكرة كأمها ؛ كان عملها المرهق المضنى يؤخرها إلى ضحى النهار . فما أتمت الأم كلماتها حتى تمتمت الابنة بكلام غير مسموع ؛ واسترسلت فى النوم مرة أخرى .

وساء الأم بعض الشىء أن لا تهتم جميلة بالحديث إلا إلى هذا الحد ، لكنها عادت فذكرت أن ابنتها لا تستطيع النهوض المبكر . فنظرت إليها فى حنان وأطالت النظر . لقد كانت صبية جميلة ، بل كانت بارعة الجمال . فأضاف منظر ابنتها إلى انطلاق روحها ونشاطها .

ونهضت من فراشها وأخذت تعمل فى البيت على عادتها . فقد كان عمل البيت أحب الأعمال إليها . ولو كانت غرفه الأربع الكبيرة ممتلئة بالأثاث لكانت قادرة على أن تحفظه نظيفاً ، فكيف به وغرفه تكاد تكون خالية ؟

ومضت أمور النهار عادية ، لكن ذاكرتها ظلت تستعيد النور الذى تراءى لها فى الصباح . تذكره فتهب ذكراه نفسها الحبور والطفرة . وتذكر بصفة خاصة الوجه الذى تراءى لها أن الضوء ينبثق منه ، كما تذكر متاعب ابنتها فتعود إلى تجهم محبب ووقار مهيب . وكانت تجلس إلى جوار ابنتها جميلة فى سكون آخر ذلك النهار حين شقت الابنة ذلك السكون فقالت :

ـ أليس الأفضل أن نموت يا أماه ؟ !

قالت جميلة هذا وهى توشى حاشية ثوب ثمين دون أن ترفع بصرها إلى أمها .

ووقع هذا القول من الأم موقعاً هائلا مروعاً واعتلجت به نفسها اعتلاجاً متناقضاً ، لكنها قالت :

— لم يا ابنتى ، لماذا تتحدثين هكذا ؟ سمعتك تقولين ذلك مرة من قبل . ألا يجب أن نعيش يا ابنتى ، ألا نستحق الحياة ؟

قالت الأم ذلك دون أن تنظر هى أيضاً إلى ابنتها . لكن صوتها لم يكن ثابت النبرات ، وإنما كان فيه تردد وخفوت ، كأن الأم أيضاً لم تؤمن بأنهما يجب أن تعيشا .

— نستحق الحياة يا أماه ، ولكن هذه الحياة لا تستحقنا !

فنظرت الأم إلى ابنتها مسرعة فرأتها عاكفة على توشية حواشى الثوب تنظر إلى ما توشى به نظرة دقيقة لا يقطعها الكلام . لم تفهم كلام ابنتها كل الفهم ، ولكنها لمحت ما فيه من معنى غريب ، ومع ذلك فقد أحست أنها فهمته على غرابته ، وترددت فى نفسها نفحة من الفرح أن تكون ابنتها على هذا القدر من الذكاء .

ورمت الأم بدورها بصرها إلى ثوب آخر بيديها كانت تعين ابنتها على جمع أجزائه . وساد الغرفة التى يجلسان فيها صمت عميق لا يُسمع فيه إلا حفيف هذا الثوب الحريرى الذى توشى الفتاة أطرافه . لكن هذا الصمت ما لبث أن انقطع ، فقد رفعت الأم بصرها مستعجلة على أثر شهقة باكية ندت عن ابنتها . ورأت ابنتها تذرف دموعاً حرى متوالية على خديها المتوردين . كانت عيناها ممتلئتين بالدموع .

وهبط قلب الأم فى جوفها وتراخت مفاصلها ، فلم تقل شيئاً ، وإنما مالت إلى وسادة قريبة منها وألقت برأسها عليها وولت ابنتها ظهرها ، وراحت هى أيضاً تذرف دمعاً متداركاً تحرص على أن لا تعلم ابنتها من أمره شيئاً .

وعاد الصمت العميق يثقل الجو لا يقطعه إلا صوت صبية الحى فى الشارع الأسفل ، إذا حل موعد اجتيازهم لنوافذ البيت فى تراكضهم حول الحى

كله ، وإلا هديرٌ بعيد لصوت البحر المجاور .

وكانت الأيام شتوية رازحة الجو ، والوقت أصيلا تؤذن شمسه بالمغيب . وكان ذلك نحو الوقت الذى تزور فيه جميلة وأمها الناس أو يزورهما فيه الناس ، فتتبدد بهذه الزيارات كآبة الجو الذى يُعرف به أصيل النهار فى المدينة . ولكن ذلك اليوم كان خلواً من الزائرات . وأحست جميلة أن هذا ربما كان السبب فى أن توجه إلى أمها تلك العبارات اليائسة فتحملها على هذا الحزن الشديد الذى تفر منه بالنوم — أو بالتظاهر بالنوم .

وأعادت جميلة فى نفسها ما قالت إلى أمها فلم تجد إلا أنها عبرت عن الواقع ، عن نفسها على أقل تقدير . فإذا كانت الحياة شقاء كهذا الشقاء وتعباً كهذا التعب ، فلم لا تموت ؟ وإذا كان ذلك شأن الناس جميعاً ، فلم يتعلقون بالحياة ؟

والتمست طريقها فى هدوء فجذبت لحافاً غطت به أمها ، ثم أضاءت مصباحاً من البترول وأخذت تتم وشيها . وانساب ذهنها فى كل مجال يهجس ويفكر ويحلم .

كانت بارعة الجمال ، فإن لها هذا الشعر الأسود الفاحم ، يعلو جبيناً أبيض ناصعاً . وإن لها لجسماً لا تنقصه أمارة من أمارات الجمال : قامة رشيقة متناسبة الأجزاء ، وعينان واسعتان دعجاوان ، ونظرات تغرى بالحب . كانت مضرب المثل عند صبايا الحى فى خفة الظل وحدة الذكاء وبراعة الحديث . ولكن هذا كان كل شىء ! !

وأخذت هى تعدد ما سلبتها إياه الأيام من مزايا لو تمت لزفت إلى أحسن شاب فى المدينة . ومرت فى ذهنها مسرعة على كل نقائصها ، وانتهى تفكيرها بسرعة إلى هذا الفقر الذى يشملها ، والذى يقف فى طريقها إلى حياة زوجية

هانئة ، تسعد بها هى وأمها .

وزفرت الأم النائمة زفرة طويلة قطعت على الابنة هواجسها . وانقلبت الأم فى مضجعها ، وغطت رأسها ، وجميلة تنظر من أسفل عينيها إلى ذلك كله فى عطف وحب يقتلان النفس . ثم ما لبثت الأم أن غرقت فى نوم عميق ، فاسترسلت جميلة مرة أخرى فى هواجسها ، وقالت لنفسها متبرمة ، فى صوت يكاد يكون مسموعاً .

ـ ما فائدة الجمال إذا كانت الفتاة منزوية فى بيت لا يصل إليه إلا الضعيفات الخليّات من السيدات ؟ لو كان أبى حيًّا لكان ذلك أجدر أن يعرّف الناس بنا ، ولو كان أخى هنا لكان من الممكن عن طريقه أن يعرفنى أصدقاؤه . أما هؤلاء الزائرات . . ماذا يستطعن أن يفعلن . . ؟ وإذا ظللت أعمل فى هذه المهنة الشاقة التى تذهب بالدم والبصر معاً فماذا عسى أن يكون مصير هذا السعال الذى يتردد فى صدرى . . .

وهنا سعلت . وألح عليها السعال فخنقته حتى لا تعكر على أمها نومها ، فنهضت من مكانها وأخذت تحوم فى غرف البيت الموحشة ، ثم فرشت لأمها حشيّة بجوار منامها وأيقظتها لتنام فى المكان الممهد ، ففعلت الأم دون أن تنبس ببنت شفة . وأعدت لنفسها فراشاً آخر واستسلمت للنوم ، لكن أجفانها لم تطعها فى ذلك الوقت المبكر من الليل . فمضت تهجس وتتقلب فى فراشها حتى ذهب معظم الليل ، فنامت .

وأصبح الصباح فنهضت الأم على حلم الأمس . أجل إن الحياة لشقاء كلها ، ولكن الدنيا لم تكن متجهمة بهذا القدر حين كان زوجها حيًّا . وتذكرت أنها لم تكن المرأة الوحيدة التى فقدت زوجها وهى صغيرة السن . ورنت ببصرها إلى السنوات التى يمكن أن تعيشها من حياتها الباقية فاهتزت اهتزازة المحموم

ثم عادت إلى شعاع النور مرة أخرى . لقد بان لها بالأمس أن الوجه وجه ابنها عزمى فكيف تفسر الحلم . وخطر لها أن تسأل الشيخ العراف عن معنى ما رأت فهدأ خاطرها وأسرّت فى نفسها أن تطلع ابنتها على جميع هواجسها هذه ، حين تخلو إليها وتجدّ الابنة فى الاستماع إلى كلام أمها .

وخلت بابنتها فى جلستهما العادية للخياطة المستمرة . وأسرت إليها بما رأت بالأمس من حلم ، وبما قرّ عليه رأيها من سؤال الشيخ فقالت جميلة :

— قد يكون الوجه وجه عزمى ، وقد يكون الضوء المنبعث أملنا الوحيد فى هذه الحياة ، لكن عزمى لا يلبث أن يخرج إلى الحياة حتى تغمره الحياة بمطالبها فلا يفرغ لأحد .

استمعت الأم إلى هذا فكأنها لم تعرفه من قبل ، وأحست بكيانها يتداعى .

ومضت الأيام ، فزُفت جميلة إلى شاب غنى فى المدينة ينتمى إلى واحدة من أعرق العائلات ، لكنها رأت عجباً مما عرفتْ . لقد كانت مخدوعة بفقرها ، فإن هذا الفقر كان يذلها ويخفض بصرها ، لكنها الآن عرفت كيف تتراكم الثروة باعتصار جهود الفقراء ، وكيف يبنى المجد العائلى على خداع الناس الضعفاء . كانت تظن أن زواجها من غنى سيرفع مقامها ويبدلها يسراً بعد العسر وراحة بعد التعب . لكنها عرفت بعد الزواج مشقة لم تعرفها من قبل ، وضعة لم يكن لها بها عهد من قبل .

وأسرت لأمها يوماً فقالت :

— من كان يظن يا أماه أن يدىّ هاتين اللتين شكتا الخياطة والتطريز ستشكوان أشق الأعمال وأشدها إرهاقاً ، وأن عينى ستتقرحان من السهر فى سبيل إنهاء هذه الأعمال ؟

قالت الأم وهى تبدى رباطة جأش مصطنعة :

– هكذا كل فتاة يا ابنتى . زوجها هو موئلها وله ولأولاده تعمل ، وسيكون هذا كله كأنه لها .

وفكرت جميلة فى هذا فلم يرق لها . لم تجد من الضرورى أن يشقى إنسان واحد مثلها فى سبيل أربعة يضمهم البيت ليس منهم من تحس بواجب حقيقى نحوه إلا ابنها الذى ولد حديثاً .

واتخذت الأم ركناً قصيًّا من البيت فأخذت تبكى فى صمت . كانت تلك ضربة القدر الثانية بعد موت زوجها . أفيكون مصير جميلة بحلاوتها وذكائها وشبابها أن يزيدها الزواج إرهاقاً ، وقد كانت ترجو لها منه الفرج ؟

وجعلت الأم بعدها تزور ابنتها لتعينها فى عمل بيتها . واستمر جسم الأم فى الذوبان والضمور ، لكن شيئاً واحداً ظل يعيد الحرارة إلى دمها والنشاط إلى أعضائها . ذكرى عزمى وذكرى شعاع النور .

وقالت لنفسها يوماً فى صوت مسموع : « إن البنت لا تفيد أهلها فى هذه الحياة ، حتى ولا تستطيع أن تقى أمها عوادى الزمن إن هى عدت » .

وأحست بمستقبلها يكشر أنيابه فى وجهها ويغدر بها أواخر عمرها ، فتموت ميتة ذليلة ، لكن شعاع النور أضاء سريرتها .

وأخذت ترقب خروج ابنها إلى الدنيا . . .

وخرج عزمى تلك السنة فارتبط بعمل وأخذ يعيش مع أمه فى بيت واحد . وأحست الأم بالحياة لأول مرة .

وقالت لابنها يوماً وهى تحدثه :

– أحب أن أرى لك زوجة وأبناء يا بنى . لقد بلغت الخمسين عاماً وإنى لأخشى الموت كل يوم .

قال عزمى :

ـ أليست الأعمار بيد الله يا أماه ؟ إنك ما زلتِ صغيرة السن .

ـ لست صغيرة يا بنى . إن الخمسين سنة التى عشتها ليست ككل خمسين سنة . إن بقية عمرى فى أبنائك . وإنك أنت الشاب لتحيا بأبنائك فقط .

ودمعت عيناها فأحس ابنها حرج الحديث فانصرف عنها وهو يعدها بأن يتزوج .

وأخذت صحة الأم تتقهقر . وكان كل ما يأمل عزمى أن يمسك عمر أمه سنوات حتى يعوض عليها من تعبها السابق راحة وهمها الأول طمأنينة ، وبؤسها الماضى سعادة .

لكن دم الأم تطرق إليه الفساد ، فأخذ كيانها ينهار متداركاً . وأحس عزمى هذا فبذل كل ما فى وسعه ووسع الأطباء ليطيل حياتها . لكن نور هذه الحياة الغالية أخذ يغيب ، وقيل إن آخر ما ينقذ حياة الأم نقل الدم إليها من جسم حى ملائم .

ونقل الدم على كره من الأم من جسم عزمى إلى جسمها ، لكن ذلك لم يفد شيئاً يذكر . أجل إنها ارتدت إلى الحياة يومين كانت تحس أثناءهما أن شباب ابنها قد دخل إلى كل عضو من أعضائها . وضحكت وأشرقت أسارير وجهها . لكن علائم الموت أخذت تبدو للعيان مرة أخرى .

وفى غرفة نائية فى أحد المستشفيات اضطجعت الأم على سريرها يجلس عن يمينها عزمى وعن يسارها جميلة .

قالت الأم وهى تحمل نفسها على الكلام فى إعياء شديد :

ـ اسمع يا بنى . اسمعى يا ابنتى . أحس حالتى اليوم غير حالاتى السابقة فى كل مرض أصبت به ثم شفيت منه .

وأراد عزمى أن ينفى فكرة الموت عن نفسه وعن أمه فقال :

ـ أنت بخير يا أماه .

قالت وقد أخذ الكلام يثقل فى لسانها :

ـ بخير يا حبيبى ، والتفتت إلى ابنتها فقالت : « بخير يا جبيبتى » .

ثم رفعت صوتها وهى تبتسم وقالت :

ـ أرى شعاع النور يا ولدى . . .

ولمح عزمى فى كلمتها هذه خمسين سنة تنطوى من التضحية المستمرة وأحس الدنيا تسلبه حرصه على أن يخدم أمه كما خدمته، فسألها وهو يشرق بدمعه :

ـ أراضية عنا أنت يا أماه ؟

وحاولت الأم أن تقول شيئاً فلم تستطع . فإنها كانت تجود بآخر أنفاسها فى الحياة ، لكن زفرة قوية صدرت عنها . كانت تلك الزفرة تحمل آخر كلماتها فى هذه الدنيا .

قالت ـ « آه » وخفضت رأسها علامة الرضا ومعها خفضت بصرها لآخر مرة وإلى الأبد .

وعلى أثر ذلك خرجت من فم عزمى كلمة ممزوجة بنشيج مسموع استمر وقعه فى أذنيه طوال عمره :

ـ نشكرك يا أماه ! نشكرك !

ليلة فى الخريف

لمكسيم غوركى

مرت بى فى أحد أيام الخريف حالة مزعجة لا تسر ، فقد هبطت ليلة إحدى المدن وليس فى جيبى دانق أنفقه ولا أعرف مكاناً آوى إليه . فبعت فى الأيام القليلة الأولى جميع ما يمكن أن أستغنى عنه من ملابسى ثم اندفعت إلى حى من المدينة يكثر فيه ، فى فصل الملاحة ، الهرج والمرج ويعج أثناءها بالحياة . وكان ذلك فى أواخر تشرين الأول . أخذت أجر قدمى وأبحث فى التراب الرطب عن شىء من الطعام ، ثم رحت أدور ما بين البيوت المهجورة والمستودعات ، وكان يخطر ببالى أثناءها أن الحصول على وجبة كاملة من الطعام شىء حسن — ما أحسنه !

وخطر ببالى أنه من الأسهل فى حضارتنا الراهنة أن يرد الإنسان جوع عقله من أن يرد جوع جسمه . إنك تجتاز الشوارع بين بنايات حسنة من الخارج وحسنة من الداخل ، فيما تستطيع أن تقول ، بلا خشية من الخطأ . بل الأمر على العكس من ذلك فإن منظر الأثاث فى الداخل قد يبعث فى ذهنك آراء عن العمارة والصحة وموضوعات أخرى مثلها عالية ؛ وقد تصادف ناساً ذوى لباس نظيف فاخر يبعث الدفء — ناساً مفرطى الأدب يتحولون عنك بلباقة لا يشعرونك معها أنهم مطلعون على حالتك السيئة أو وجودك المنكود .

إن عقل الرجل الجائع أصح من عقل الرجل الذى يجد كفايته من الطعام . ولك من هنا أن تستنبط استنباطاً بارعاً ، وهو أن الجوع مبرِّر ! وكان الليل يرخى سدوله والمطر ينهمل والرياح تهب من الشمال عاصفة ، تصفر بما تمر منه من الدكاكين والمداخل والنوافذ ، وتمر فوق النهر فتحدث زبداً رابياً وأمواجاً متلاحقة تتدافع بمناكبها . وكان النهر يختبط لأنه يحس قدوم الشتاء ، وينحدر مسرعاً كأنه يفر من الثلج التى تحمله معها ريح الشمال . وكان الجو ثقيلا مظلماً تتساقط منه قطرات من المطر لا تكاد تراها .

كان كل ما حولى مفلساً . فالشجر الهرم بائس ينوء بالريح العاصفة ، والزورق البالى مقلوب على شاطئ النهر . كان كل شىء قاحلا وشعرت كأنى أنا الوحيد الحى ، وتصورت موتاً بارداً ينتظرنى .

وكانت سنى آنئذ الثامنة عشرة — عمر ملائم ! وتابعت السير فى التراب البارد الرطب . وكانت أسنانى تصدح على شرف البرد والجوع ! وعندما كنت أفتش بعناء عن شىء أتبلّغ به خلف أحد أقفاص القمامات لمحت وراءه شبح امرأة جاثمة على الأرض وقد ابتلت ملابسها بماء المطر وغار رأسها بين كتفيها . فوقفت وراءها أتبين ما تصنع ، فإذا بها تفتش فى القمامة بيديها ، فتقدمت منها وجثمت إلى جوارها ثم سألت فجأة :

— لماذا تصنعين هذا ؟ فصرخت صراخاً قصيراً ونهضت على ساقيها بسرعة ثم رمت ببصرها إلىّ وقد جحظت عيناها الخضراوان من الرعب ، فرأيت فيها فتاة تراوح سنها سنى ، ورأيت وجهاً لطيفاً وخطته ثلاث علامات كبيرة من الوشم الأزرق . وقد شانها الوشم مع أن علاماته الزرق كانت موزعة بانتظام عجيب . كانت العلامات ذات حجم واحد وكانت اثنتان منها تحت عينيها وواحدة على جبينها فوق قناة أنفها . كان هذا التناسق ولا مراء دليلا على براعة فنان موهوب فى تشويه الملامح البشرية !

نظرت إلىّ الفتاة جزعة ثم ذهب رويداً ما بها من جزع ونفضت التراب عن يديها وعدلت عصابة رأسها ثم جثمت وقالت :

ـ أظن أنك أنت أيضاً تبحث عن شىء تأكله . احفر بيديك إذن فإن يدى تعبتان . احفر هناك . وأومأت برأسها إلى كومة من القمامة . هنالك خبز ولا ريب ، ونقانق ، فإن تلك الكومة تبدو ذات غناء .

فبدأت أحفر ثم اقتربتْ بعد قليل فجلست إلى جانبى وأخذت تساعدنى . وعملنا صامتين . ولست أذكر اليوم ما إذا كنت قد فكرت آنئذ فى القانون الجزائى أو فى الأخلاق أو فى الملكية أو فيما إلى ذلك كله مما يجب أن يفكر فيه المرء كل لحظة من حياته ، كما يرى كثيرون من رجال الخبرة والحياة . أما أنا فأقول بكل ما لى من رغبة فى التزام الصدق إننى لم أستطع سبيلا إليه . بل يجب علىّ أن أعترف بأننى كنت منهمكاً فى الحفر فى القمامة إلى حد نسيت معه كل شىء آخر إلا هذا : ماذا يمكن أن يكون داخل هذه القمامة ؟

وأرخى الليل سدوله وتكاثف الضباب البارد الرطب الحائل اللون ، واستمر فى التكاثف من حولنا . وأخذت الأمواج تضطرب أكثر من ذى قبل بأصواتها الجوفاء . وبدأ المطر ينهمل على جوانب القمامة بصوت متزايد مشتد . ووصل آنئذ إلى سمعى صوت الحارس من بعيد وقد أخذ يضرب الأرض بعصاه . وهمست مساعدتى قائلة : « هل للقفص قعر؟ » همست بذلك فلم أفهم ما تقول فظللت صامتاً . ثم عادت فقالت : « هل للقفص قعر ؟ إن كان له قعر فسنحاول العبث به لكسره . إننا نحفر فى القمامة ولا ندرى ما إذا كنا فى النهاية نصل إلى ألواح من الخشب . وكيف ننزعها عندئذ . أرى أن تكسر القفل فإنه قفل قديم » .

إن النساء قلما يخطر ببالهن فكر مفيد ، ولكن هذه الأفكار قد تغزو عقولهن أحياناً كما ترى . كنت أقدر الآراء المفيدة قدرها دائماً ، وهنا حاولت

أن أستفيد منها ما استطعت .

فعندما وجدت القفل جذبته ونزعته . فانحنت شريكتى وانسلت فى الفتحة كالأفعوان وقالت بصوت منخفض :

ـ إنك حاذق !

وكانت بادرة من المديح من امرأة فى تلك الأيام أعز علىّ من أى مديح يكيله لى رجل ، ولو كان أبلغ الخطباء قدماء ومحدثين معاً . لكنى كنت ساعتئذ فى وضع أقل ملاءمة للحبور منى الآن ، فلم أعبأ بمديح زميلتى وسألتها بإيجاز ولهفة :

ـ هل وجدت شيئاً ؟

فأخذت تعد ما وجدناه فى لهجة فاترة لاحياة فيها ، وقالت :

ـ سلة مملوءة بالقنانى ، فرو كثيف ، شمسية ، دلو من الحديد .

كان كل ذلك لا يؤكل . فشعرت أن آمالى قد تبددت ، ولكن صاحبتى سألت مسرعة فى شىء من الحيوية .

ـ آه ها هنا شىء !

قلت : ماذا ؟

قالت : خبز . رغيف ، غير أنه رطب ، خذه .

وسقط رغيف على قدمى ثم تدحرج إليها . فتناولتُه ونهشت منه قليلا حشوت به فمى وأخذت أمضغ .

ـ تعال . تعال . أعطنى شيئاً أنا أيضاً . يجب أن لا نبقى هنا . أين نذهب ؟

تفحصت المكان كله ولكنه كان معتماً رطباً عاصفاً .

ـ انظر إن هنالك قارباً مقلوباً فلنذهب إليه .

قلت : فلنذهب . ومضينا .

أخذنا ننهش فريستنا ، نملأ أفواهنا بقطع كبيرة منها . واشتد المطر وهدر النهر وتجاوبت أصداء صفير طويل ساخر كأنه صادر من رجل عظيم لم يخف شيئاً ، أخذ يهدر ساخراً بجميع الناس وبهذه الريح الخريفية الراعبة ، وبنا نحن . بعث هذا الصفير فى قلبى الخوف ، فأخذ يخفق بشدة . مضيت مستمرًّا فى الأكل ومضت الفتاة تمشى إلى شمالى ، خطاها إلى خطاى .

ــ ماذا يسمونك ؟

سألتها هذا السؤال ، فإنى لم أكن أعرف اسمها .

ــ نتاشا .

أجابت بذلك مسرعة وهى تمضغ مضغاً له صوت مرتفع . ثم نظرت إليها وحملقت فى الضباب المتكاثف أمامى ، وأحسست مخايل مستقبلى الذى يعادينى تتهكم بى على صورة غريبة فاترة .

وأخذ المطر يلطم خشب القارب بلا انقطاع كما أخذت طقطقته الناعمة تثير فىّ أفكاراً سوداوية ؛ وأخذت الريح فى تسللها إلى خشب القارب من الأسفل تصفر من شظايا خشبه المتداعى بصوت يبعث فى النفس الخمول والانزعاج . وكانت أمواج النهر تتناثر على الشاطئ ، وكان صوتها متوتراً إلى حد ثقيل متعب موئس . وكان صوت المطر ينخرط فى صوت الأمواج فيحدث تنهداً متثاقلا يطفو على القارب المقلوب ــ تنهد الأرض وقد أضرّ بها وأنحلها هذا التغير الذى تتعرض له من الصيف الدافئ المشرق إلى الخريف البارد الرطب المفعم بالضباب . وعصفت الريح على الشاطئ المهجور وعلى النهر المزبد ــ عصفت وناحت نواحها السوداوى المرهق .

وكان وقوفنا ملتجئين إلى القارب خلواً من الراحة فقد كان القارب ضيقاً

رطباً وكانت قطرات الماء تتساقط من بين الألواح التى تؤلف قعره وكانت الريح تمر منه مندفعة . جلسنا صامتين نرتجف من البرد وتذكرت آنئذ أننى أرغب فى النوم . أما نتاشا فقد اتكأتْ بظهرها على مقدمة القارب والتفت على نفسها فى شكل طابة صغيرة وعانقت ركبتيها بيديها ، وألقت بذقنها إليهما ثم أخذت تحدق فى النهر كما يحدق الكلب بعينين منفرجتين انفراجاً شديداً ، وبدت عيناها على صفحة وجهها المصفر كبيرتين من جراء العلامتين الزرقاوين المخطوطتين تحتهما . ولم تتحرك قط . أدخل هذا السكون والصمت إلى بالتدريج خوفاً من جارتى . فأردت أن أتحدث إليها ولكننى لم أعلم كيف أبدأ . وكانت هى البادئة فقالت :

ــ ما أشد الحياة لعنة !

قالت ذلك بوضوح وتفلسف فى لهجة واثقة عميقة . لم تكن كلماتها تذمراً ولا شكوى ، إذ كان فيها شىء كثير من عدم المبالاة . فكرت هذه الروح الساذجة على قدر ما تفهم ومضت فى الاستنباط ، ثم عبرت عن استنباطها تعبيراً لم أستطع معارضته خشية أن أناقض نفسى ، ولذلك سكتّ ، واستمرت هى جالسة لا تتحرك وكأنها لا تشعر بوجودى . ثم استمرت فى القول :

ــ حتى إذا أعولنا ونقفنا نقيقاً فماذا بعدئذ ؟

قالت ذلك فى هدوء وتفكير وكأنها لا تتذمر . وكان واضحاً أن هذه الفتاة تعبر عن حالها هى ، فاستنبطت واقتنعت بأنها إذا أرادت أن تجنب نفسها سخرية الحياة وهزلها فلم يكن أمامها إلا أن تصيح وتنقّ .

وكان تفكيرها الواضح هذا حزيناً كل الحزن مؤذياً لى كل الأذى ، وشعرت أنى إذا استمررت فى الصمت شيئاً آخر اندفعت إلى البكاء ، وكان من المخجل أن أفعل ذلك أمام امرأة ، ولا سيما وأنها لم تكن هى نفسها تبكى ، ولذلك صممت على أن أتحدث إليها .

– من الذى قذف بك وحدك هاهنا ؟

سألتها ذلك ولم أملك آنئذ أن أوجه شيئاً أرق أو ألطف معنى .

فأجابت قائلة فى صوت باهت ذى نبرة مستوية :

– فعل ذلك كله پاشكا » .

– ومن هو پاشكا هذا ؟

– حبيبى . . . كان خبازاً .

– وهل كان يضربك غالباً ؟

– كان يفعل عندما يكون سكران . . . غالباً .

ثم انفتلت نحوى فجأة وأخذت تتحدث عن نفسها وعن پاشكا وعن علاقتهما المتبادلة . كان خبازاً وكان ذا شاربين أحمرين وكان ماهراً فى العزف على البانجو . جاء ليراها فسرها منظره جداً إذ كان شاباً مرحاً ، وكان يلبس ملابس نظيفة لطيفة ، صدرة ثمنها خمسة عشر روبلا وحذاءين طويلين . ولهذه الأسباب أحبته وتولى الإنفاق عليها ، ثم أصبح ينفق ما عندها من دراهم كانت صديقاتها يودعنها إياها ، ثم أخذ يسكر بهذه الدراهم ويضربها . ولم يكن ذلك شيئاً لو لم يصاحب غيرها من الفتيات أمام عينيها .

قالت :

– أليس هذا تحقيراً . لست أسوأ من تلكم الفتيات ، وبالطبع لم يكن لذلك من معنى إلا أنه كان يضحك منى . ذلك اللئيم ! وأول البارحة طلبتُ إلى سيدتى التى أخدم عندها أن أخرج قليلا ، فذهبت إليه وهناك وجدت دنكا تقعد إلى جانبه مخمورة ، وكان هو أيضاً مخموراً ، فقلت له أيها النذل أنت ! فضربنى وشد شعرى . ولم يكن ذلك شيئاً إزاء ما وقع بعدئذ . فقد مزق كل ملابسى وتركنى كما ترانى الآن . كيف كنت أستطيع الظهور

أمام سيدتى ؟ لقد مزق كل شىء . . . فستانى ومعطفى — كان معطفى جديداً . ثم مزق نقابى . . . أواه ربى ! ماذا ينتظرنى بعدئذ .

ثم استغاثت بصوت محزن كئيب .

وعصفت الريح . وأخذ الجو يبرد ويقسو ، فأخذت أسنانى تصطك ، وأخذت هى تلف نفسها لتتجنب البرد ، والتصقت بى أشد ما يمكنها أن تلتصق ، حتى كدت أرى لمعان عينيها فى الظلام . وهنا قالت :

— أى مخلوقات تعيسة أنتم أيها الرجال ! وددت لو أحشركم جميعاً فى أتُون . لو أقطّعكم إرباً إرْبا . لو أبصق فى فم أحدكم وهو يموت لا أبدى له شفقة البتة . أيها الثعالب الدنيئة ! تتمسكنون وتتمسكنون ، ثم تراوغون وتحركون أذنابكم كالكلاب الذليلة ، ونحن المغفلات نسلم لكم بأنفسنا ثم تنتهى الأمور معنا ولا تلبثون أن تطؤونا بأقدامكم .

وهكذا أمطرتنا وابلا من اللعنات علواً ودنواً . لكن لم يكن هناك عنف ولا حقد ولا كراهية لهؤلاء التعساء الأراذل . إن لهجة كلامها لم تتلاءم قط مع ألفاظها ، كانت هادئة وكانت رقة صوتها جد مسكينة .

ومع ذلك أحدث هذا فى نفسى أثراً أعمق من أكثر الكتب والمقالات تشاؤماً . كنت قد قرأت كثيراً من ذلك ولا أزال أقرؤه إلى اليوم . إن الحزن الذى يبديه شخص يموت أشد أثراً من أوصاف الموت الدقيقة الرائعة .

وشعرتُ بالتعاسة حقاً ، وكان مصدر ذلك البرد أكثر مما كان مصدره كلام جارتى . همهمت بهدوء وصررت بأسنانى . وشعرت فى اللحظة نفسها تقريباً بذراعين صغيرتين حولى لفت إحداهما عنقى وجاءت الأخرى فوق وجهى . وفى الوقت نفسه أيضاً صدر سؤال لطيف فى صوت أخوى :

— ما الذى يؤلمك ؟

وكنت على استعداد للاعتقاد بأن شخصاً آخر لا نتاشا يسألنى هذا السؤال . فإنها هى التى قالت منذ لحظة بأن الرجال أراذل أدنياء ، وأعربت عن رغبتها الملحة فى هلاكهم جميعاً . ثم أخذت تتحدث مسرعة .

ــ ما الذى يؤلمك ؟ قل هل أنت مبرود هل أنت مثلج ؟ ما أغربك! تجلس هناك صامتاً كالبومة الصغيرة . كان عليك أن تقول منذ زمن إنك مبرود . تعال نم على الأرض ، استلق وسأستلقى أنا هنا . كيف ترى ؟ ضع ذراعيك الآن حولى ، شد بهما أكثر ، كيف ترى الآن ؟ إنك ستدفأ حالا ثم سنضطجع ظهراً لظهر وستمر الليلة مسرعة . سترى . هل كنت أنت أيضاً تشرب الخمر ؟ هل قُذف بك من بيتك . هيه ، لا بأس !

ثم مهدت منامى وأراحتنى وشجعتنى .

ياللعنة ؟ أى عالم من الهزء والسخرية هذا الذى أراه فى حادث واحد . تصور : أنا منهمك فى هذه اللحظة بمصير الإنسانية . أفكر فى قلب النظام الاجتماعى وفى الثورات السياسية . أقرأ جميع الكتب المليئة بالحكمة . كنت فى هذه اللحظة أحاول بكل ما أستطيع من قوة أن أجعل نفسى « قوة اجتماعية كامنة » كما يقولون ؛ وبدا لى أنى بلغت جزءاً من غرضى . ومهما يكن من أمر فقد وصلت إلى أن أرى أنه كان لى الحق التام فى أن أعيش ، وأنه كان عندى من العظمة ما أستأهل من أجله حياتى . وكانت لى قدرة القيام بدورى التاريخى . هاهنا امرأة تدفئنى بجسمها . مخلوق تعيس آبق محطم لا مكانة له فى الحياة ولا قيمة . لم أفكر قط فى مساعدتها حتى ساعدتنى هى . وحتى لو خطرت لى مساعدتها لما عرفت كيف أفعل . كنت أتوقع أن يقع لى ما وقع فى حلم مزعج أو كابوس. أما أن تلتصق بى امرأة لتدفئنى ، وأن يغمر نفسها الدافئ وجهى فأمر لم يخطر لى ببال .

واستمرت الريح فى غضبها وعصفها ، وسقط المطر على القارب وصفقت

الأمواج وكان كلانا يعانق الآخر ، ومع ذلك يرتجف من البرد . لم يكن ما حدث كله إلا واقعياً . ومع ذلك فإنى أثق أن أحداً لم يحلم حلماً مزعجاً كهذا .

كانت نتاشا دائماً تتحدث عن شىء ، تتحدث بلطف وعطف لا يقدر عليهما إلا النساء . وقد اضطرم قلبى من وقع كلامها ، وأخذ شىء فيه يذوب وينحل . ثم أخذت الدموع تتساقط من عينى كالبرد ، تغسل من قلبى كثيراً مما علق به من سوء ، تمحو منه كثيراً من البلاهة ، كثيراً من الألم والخبث اللذين كانا ملازمين له قبل تلك الليلة . إن نتاشا هى التى هدأت نفسى .

– تعالى . تعالى . يكفى أيتها الصغيرة ! لا تتأثرى . إن هذا كاف وسيمنحك الله منحة أخرى غير تلك ، وستتبدل الأمور وتحلين فى محلك اللائق . كل شىء سيعود إلى حاله الحسنة .

ثم أخذت تقبلنى . قبلتنى مراراً . . . قبلات حارة . . . وكان ذلك كله دون غرض .

كانت تلك أولى القبل التى منحتنى إياها امرأة ، وكانت أحلى القبل كذلك ، لأن القبل التى جاءت بعدها كلفتنى جميعاً كلفة مروعة ، ولم تكسبنى شيئاً مقابل ذلك .

– تعالى لا تلتاعى أيتها الفتاة ! سأنظر فى أمرك غداً إذا لم تجدى مكاناً .

فهمست فى أذنى همساً هادئاً مقنعاً كأنما جاء فى حلم .

واضطجعنا هناك إلى الفجر .

ولما طلع الفجر تسللنا من وراء الزورق وانحدرنا إلى المدينة . ثم ودع أحدنا الآخر وداعاً أخوياً لم نلتق بعده قط ، مع أننى فتشت فى كل مكان

نصف سنة عن نتاشا اللطيفة تلك ، نتاشا التى صرفت معها ليلة الخريف التى وصفت الآن .

فإن كانت مائتة — وخير لها أن تكون — فطيب الله ثراها ، وإن كانت حية فليمتعها الله بالراحة والهدوء وليحرمها الشعور بالهوة التى تتردى فيها ، لأن ذلك ألم ممض لا فائدة منه ، إذا كان بد من أن تكون الحياة على هذا النحو .

فقير

كان الوقت أواخر أيام الخريف ، وكان الجو فاتراً كالحاً لا يبعث على النشاط ، فالشجر قد عرى من ورقه والأرض قد غشيت بالتراب الأغبر العبوس . وكانت علائم الشتاء تجتاح الجو ، فقطع الغيوم تتلاحق فى السماء ، والعجاج يثور من كل جانب ، والطبيعة خاوية لا توحى بشىء .

وكان صاحبه منهمكاً فى عمله العادى ، مديراً لمدرسة ، والناس قد انفضوا عنه بعد أن ازدحموا على غرفته طوال النهار يلتمسون لأبنائهم سبيلا إلى المدرسة . وكان قد ناله إعياء شديد من عمل ذلك النهار كله ، فقد سمع كثيراً من أولياء الطلاب بأنه متحيز لا يقبل فى المدرسة إلا أبناء الجاه والموسرين . وبدا له أن كل شىء يكاد يطبق عليه . كان مشغولا ، ولكنه لم يكن يريد فى تلك الحالة أن يعمل شيئاً ، فقد خطر بباله آنئذ أن المرء يُحمل فى حياته على التصرف بشكل لا يرضاه هو لنفسه ، وأخذ يرى مع أولئك الذين اتهموه بالتحيز فى النهار أثناء عمله ، أنه حقًّا قد ينحرف عن الحق ، لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وإنه يجب أن لا يلومهم فى اتهامهم .

وأنه لفى هذه الأفكار وقد شخص ببصره من نافذة إلى خارج الغرفة التى يعمل فيها ، لا تطرف له عين ، إذ دخل عليه الحاجب يقول له ، وهو يظهر الاشمئزاز :

– إن فى الباب رجلا لا أدرى من هو يريد أن يدخل .

قال الحاجب هذا وهو يزوى حاجبيه ، على شكل أدرك منه صاحبه معنى اشمئزاز نفسه . فقد كانت هذه عادة الحاجب حين كان يستأذن لرجل تبدو عليه المسكنة ، فقال له :

ـ أدخله ، لا بأس .

فخرج الحاجب مسرعاً وقد خلّى صاحبَه أسير فكرة جديدة عبرت بباله ، فإن حال هذا الحاجب لا تبعد كثيراً مهما يكن الأمر عن حال هذا الرجل الذى سيدخل عليه بعد قليل ، فأن يُظهر الحاجب اشمئزازاً منه ، أو تبرماً به ، دليل على أن هذا الحاجب يحارب فى هذه الحياة نفسه . أليس جديراً به أن يكون عطوفاً على أمثاله من الناس الذين يحيون حياة الفقر والقلق التى يحياها هو .

وفيما هو يسرح ذهنه فى هذه الناحية ، أديرت قبضة الباب ذات اليمين وذات الشمال محاوَلةً للدخول ، وتخلخل الباب دون الذى يريد أن يدخل ، ولكنه لم ينفتح . فلفتت هذه الحركة نظر صاحبه ، فانقطع عن تفكيره ، ورفع رأسه ونظر إلى الباب فإذا بشيخ يقتحم الباب متردداً ، ينظر إليه مرة وينظر حواليه مرات . ينظر حواليه أكثر مما ينظر إلى الذى قصده لمشكلة يومه . كانت ترتسم على عينيه حيرة ويلم بشفتيه اختلاج ، يمنعه من البدء بشىء وما جاء إلا ليبدأ بشىء ، وليتم ما يبدأ به إلى أقصى غاياته .

فقال له صاحبه مشجعاً :

ـ تفضل .

فاندفع نحوه يتمتم بكلام لعله كان تحية كتمها خوفُه من أن لا يرد صاحبه عليها وهو الفقير الأشعث الأغبر البادى الذل والانكسار .

ولكن صاحبه رأى ارتباكه هذا فقال له وهو يشجعه :

ـ أهلا وسهلا .

قال الشيخ مستدركاً :

ـ السلام عليكم . كيف حالك يا أفندى ، يابك . كيف أنت ؟

ثم مد يده للمصافحة ، فنهض صاحبه من كرسيه بعض الشىء وقابل اليد الممتدة إليه . فما كذّب إحساسَه بما كان يتوقعه من يبوسة تلك اليد وارتجافها وتقوس أصابعها . ولكنه قبض على هذا كله مطمئنًّا راضياً يخامر نفسَه شىء من السعادة على أن تنازل لهذا المسكين فهدأ روعه وقربه . وشرد ذهنه حالا إلى ناحية أخرى . فإنه رأى أنه متعلم ورأى أن كثيرين من الذين يسمُّهم الناس بالمتعلمين والمثقفين والعلماء من الذين يحيا معهم وينتسب إليهم ، يحسون أنهم إنما « يتنازلون » إلى مثل هذا الرجل حين يحيونه أو حين يردون له التحية . ورأى كيف يظن بعضهم أنه قام بفضل إذ يحيّى رجلا فقيراً أو يلتفت إليه .

ولم يشرد ذهنه أكثر من هذا ، فقد انتبه إلى أن الرجل الشيخ أمامه ، فطمأنه وأشار إلى كرسى ، وطلب إليه أن يجلس ، ففعل . وكان صاحبه مشغولا ، ولكنه لم يحبب على عجل أن يبادئ الرجل القادم بما يعرب عن كثرة شغله ، فقد يُدخل ذلك فى روعه غير ما أدخله هذا التشجيع الذى لاقاه إلى الآن ، ولكنه نظر إليه فرآه يتردد فى مقعده كمن يهم بالوقوف ثم يرى القعود أولى به ، وتلعثم الرجل فلما رأى صاحبه يصغى إليه قال :

ـ أيها الأفندى ، لى مسألة فهل ترضى أن تسمع منى خبرها ؟

قال صاحبه : « نعم » . وترك ما فى يده وانعطف إلى الشيخ يستمع إليه كل الاستماع .

فأخرج الشيخ من عبه ورقة وهزها بيده هزًّا رفيقاً ثم قال :

— آجرت بيتى يا أفندى إلى تلاميذ من مدرستك . خمس عشرة ليرة فى السنة . وهذا هو السند ، سند الإيجار مدة السنة كلها . استأجره منى أحدهم واسمه إبراهيم . هو طالب فى مدرستك . نعم فى مدرستك . وابن عمه يا أفندى وواحد آخر لا أعرف اسمه . ومكثوا فيه ثلاثتهم ثمانية عشر يوماً ونصف يوم أيضاً . دفعوا لى ليرتين عربون الإيجار ثم عنَّت لهم مغادرة البيت بعد هذه المدة ففعلوا، وهذا هو البيت يبقى لى من غير إيجار . إنه خال الآن وقد مضى الوقت الذى يمكن أن يؤجر فيه . إن البيوت عندنا يا بك لا تؤجر إلا بداية السنة، عندما يأتى تلاميذكم إلى المدرسة . كان الله لكم. أنت سبب الخير لنا .

ثم سكت هنيهة وأخذ يقلب طرفى ثوبه فانحدرت عندئذ دموع كبيرة من عينيه فشرق بها ثم قال بصوت أجش متقطع :

— إنى فقير . أليس للفقير مكان فى هذه الدنيا يعيش فيه ؟

فهدأ صاحبه روعه ، ثم سأله :

— وماذا أستطيع أن أفعل ؟

قال :

— طلب إلى الباشا والقائد أن أفسخ عقد الإيجار من أجل خاطرهما ففعلت . فعلت ذلك من أجل خاطرهما يا أفندى . وماذا أصنع ؟ ثم حكما أن أرد للمستأجرين ليرة وأستبقى الليرة الثانية لى لقاء الأيام التى سكنوا فيها البيت . أستحق ثمانية قروش فوق الليرة ولكن الباشا والشاويش قالا : اترك القروش الثمانية من أجل خاطرنا ، ففعلت والله وأنا محتاج إلى القرش الواحد ، ولكن ماذا أصنع . عندى عائلة كبيرة . وأنا أصبحت شيخاً ولا قبل لى بالعمل ولا مورد لى إلا إيجار هذا البيت . بنيناه بأيدينا لنؤجره . نسكن غرفة ونؤجر الباقى يا سعادة البك ، إنه بيت ذو أربع غرف ومرافقها .

فالتهب صاحبه عاطفة وهمّ يدعو بالتلاميذ، ولكنه لمح أنهم انصرفوا ولمح فوق هذا أن المسألة قد تدخل فيها رجلان نافذان، فاطمأن وقال:

— وما دمت قد رضيت بفسخ العقد مع الطلاب من نفسك فماذا أصنع لك؟

قال الشيخ :

— عادوا فأخذوا الليرة منى يا أفندى . أخذوا الليرتين . لم أكن بعد قد دفعت الليرة للطلاب كما قد وعدت الباشا . ثم طلبنى الشاويش هذه المرة وقال ، ادفع الليرتين كاملتين للطلاب . فقلت له يا بك إننا اتفقنا على دفع ليرة واحدة . لو دفعت ليرة لكنت خاسراً ثمانية قروش والقروش الثمانية تقدم معى وتؤخر ، فأصر . فلما كررت إيضاح المسألة له أوقفنى سجيناً . فلما كان الظهر قالوا : لى احمل هذا الدلو واذهب فاملأه ماء صحبة هذا الجندى ثم عد معه . خجلت يا أفندى . متقدم فى السن، أوما ترانى — بلغت هذا العمر ثم أملأ الدلو على مرأى من الناس . اعتذرت فقالوا أو تدفع قرشاً لقاء كل دلو ، ودفعت قرشاً يا أفندى . فلما كان العصر دفعت قرشاً آخر ، تفادياً من ملء الدلو . قالوا لى مرة ثانية املأه ، وهكذا دفعت أربعة قروش ، ثم رأيت أن أخلى الليرتين وطلبت إخلاء سبيلى . وها أنا قد تعطل بيتى ومصدر رزقى ودفعت الليرة التى أستحقها، والقروش الثمانية معها . ودفعت أربعة قروش علاوة على ذلك . ماذا أفعل ، الفقير مسكين ، الكل عليه .

قال ذلك واندفع يجهش بالبكاء وجرت دموع على شعر لحيته الأبيض . ونظر صاحبه إلى هذا ، فقد نال من قلبه منظر شيخ يبكى . لم يكن من قبل رأى شيخاً بهذه السن المتقدمة يبكى . وانعطف إلى نفسه مرة أخرى يسائلها « هل فى الناس من يستحل عمل هذا الشيخ الفقير ، فيختلس منه دريهمات قليلة كهذه التى أخذ يعددها بالتفصيل منذ لحظة » . وبدا له أن يدفع له

المبلغ الذى خسره من جيبه ثم خطر له الطلاب وسطوته عليهم كما خطر له أنّ دفعه المبلغ يؤدى به إلى عداوة الباشا والقائد ، واندفع من هناك إلى التفكير بأن المرء فى هذه الدنيا قد يبدو له أحياناً أن يكون صالحاً فلا يقدر على ذلك خشية الناس .

ثم انقطع عن هذا كله فجأة وقال للشيخ :

— ولكن السند بيدك تستطيع أن ترفع قضية ، وتطالب بالليرتين وبالعطل الذى أصابك .

قال الشيخ : عرضته على محام وشرحت له قضيتى كما قصصتها عليك فلم يقبل . قال قضية خاسرة . ثم استأنف الشيخ وهو يغص بالهواء الذى يتنفس به .

— لكننى لا أقدر أن أرفع قضية يا أفندى . يحبسوننى ، يلازمونى بالعذاب ، يغضبون علىّ . أنا كبير السن وشيبتى هذه لا تتحمل من الإهانة أكثر مما تحملت . قلت أبنى البيت ونعيش منه أنا وزوجتى وأولادى لا يتدخل فينا أحد . بنيناه بأيدينا .

قال صاحبه وقد عبرت بذهنه تلك اللحظة فكرة الباطل المريحة : لا أقدر أن أصنع شيئاً . إن القائد حر فى عمله . وهو لا يفعل إلا الحق . ثم لا سلطة لى عليه . وأما الباشا فأقدر أن أسأله فإذا أيد قولك فقد أتحدث إلى الطلاب بأن يعيدوا إليك الليرة ، فإن فعلوا فبها وإلا فلا قدرة لى على غير ذلك .

قال : أو تسأل الباشا ؟

قال صاحبه : نعم أسأله !

قال الشيخ : «يكفينى ذلك ، السلام عليكم . هات يدك » . فمد إليه صاحبه يداً للمصافحة ، فتناولها الشيخ بكلتا يديه وجذبها إلى وجهه ، وصاحبنا واجم

يشد يده شداً قوياً يبغى به تخليصها من الشيخ . لكن الشيخ جذبها بعنف وقبّلها .

وشعر صاحبه بآثار القبلة الباردة تأخذ بظاهر يده ، كما شعر بدمعة حارة تسقط عليها ، وأحس خشونة شعر لحية الرجل ، وكان قد استسلم فأرخى يده يديرها الشيخ كيف يشاء وتهالك صاحبه فى مقعده حيران لا يستطيع حراكاً . لم يعرف كيف خانته عزيمته فقد أحس بدبيب من الفتور يتسلط على مفاصله فيقعده ، وشعر بغشاوة تمر على بصره ، فلا يرى شيئاً ثم لم يعرف كيف خلت غرفته من ذلك الشيخ الفقير .

الحرب

وليم ساروبان

كانت سن كارل البروسى خمس سنوات وكان ذا طلعة توتونية باهرة ، كما كان يتخذ هيئة عسكرية حين يمشى على الرصيف المقابل لبيته . وكانت تعابيره فى الكلام ذات جزم وحزم طبيعيين يبعثان على الإعجاب وينشئان النشوة فى النفس . وكان يتصرف تصرفه هذا كما لو كان يعلم حق العلم الأنفة اللازمة للحديث العسكرى . ولذلك كان يتصرف كأنه لا يحب أن ينال من هذه الموهبة . كان لا ينبس إلا نادراً ولا يقول إلا عبارات موجزة لا تعدو الواحدة منها ثلاث كلمات أو أربعاً تشير رأساً إلى القصد فى غرور مدهش عجيب . وكان يعيش فى البيت الواقع على العُدوة الأخرى من الشارع ، كما كان موضع افتخار جده . وكان هذا الجد رجلا معتدل القامة يبلغ الخمسين من العمر له شاربان ألمانيان بارزان . وكانت صورته قد ظهرت فى جريدة منذ سنوات حين كان يعنى بحملة سياسية خاصة . وقد بدأ هذا الرجل يعلم كارل المشى حالما استطاع الطفل أن يستوى على قدميه . كنت تراه يمشى مع الصبى الصغير الأشقر وقد ألبسه قميصاً أزرق سابغاً ، ومضى يخطو جيئة وذهاباً على الرصيف ، يمسك بيدى الطفل ويعلمه طريقة الخطو الدقيق إلى الأمام ، فى صورة تنم على الغرور وطريقة ألمانية ملكية ، كما كان يدله على الطريقة التى يقوّم بها رجليه ويصلّب ركبتيه فى خطوات تشبه الواحدة منها الرجل وقد أعدت للقذف بشىء .

كان الرجل المسن والطفل الصغير يمشيان معاً على هذه الشاكلة كل يوم فى الصباح . واستمرا فى ذلك بضعة أشهر . وكان من الممتع جداً أن يرى المرء هذا السياق فى العمل . وكان تقدم كارل سريعاً شيئاً ما ، وأخذ الطفل يدرك العبوس الهادئ الذى كان يغشى محيا جده ، وكان يبدو ممن يرى الطفل (حتى عن بعد) من عدوة الشارع الأخرى ، أنه قد آمن بأهمية هذا المشى الأنوف ، ويتمنى أن يتعلمه على الطريقة التى كان يعلمه بها جده . وكان الطفل وجده من حيث الواقع ذوَى شخصية واحدة . لم يكن بينهما من فرق إلا هذا الفرق الذى يمليه العمر والاختبار ، ولم يكن يبدو على كارل أى مظهر من مظاهر الثورة أو التذمر أو الرغبة فى العزوف عن هذا النظام الذى يأخذه به الرجل المسن .

وبعد زمن كان الناس يرون الصبى الصغير يمشى على الرصيف ذهاباً وإياباً قبالة بيته وحيداً لا يسعفه الكهل الذى كان يراقبه بهدوء وقد جلس على درجات بيته يدخن غليوناً وينظر إلى الطفل نظرة تنم على الخشونة والكبرياء فى حين كان الصبى يرفع نفسه إلى الأمام فى شكل لطيف . وكانت طريقة المشى قديمة الطراز على التحقيق ، ومن المؤكد أنها كانت غير ديموقراطية بعض الشىء ، لكن كل إنسان فى الحى أحب كارل ونظر إليه نظرته إلى رجل صغير ظريف جداً . كان فى مشى الصبى على هذا النحو شىء يبعث على الارتياح ويوحى بأن التوتونيين الصادقين يقدرون أهمية الأعمال الآلية كالتنفس والمشى والحديث . وهم يستطيعون أن يعنوا بهذه الأعمال التافهة عناية تنم على العزة والتدبر . ويبدو أنهم يعتقدون أن التنفس ، والمشى ، والحديث ، تتصل اتصالا وثيقاً بالحياة عامة ، ولهذا فليس فى هذه الضجة التى يثيرونها حول هذه الأعمال ما يجب أن يبعث على شىء من التهكم أو السخرية .

وكان الذين يعيشون فى البيوت المجاورة من الحى قد نشأوا نشأة طيبة خلال السنوات الست أو السبع الماضية . وكان فى الشارع عدد وافر من الأطفال ، نشأوا جميعاً صحيحى البنية حسنى المظهر . كنت أنا أراهم فى غاية الظرف على كل حال . ولم يكن كارل إلا واحداً من جماعة الصبية . ولم أذكره أولا إلا لأنه كان الوحيد الذى تلقن الفهم القومى العرفى فى الحياة تلقناً واعياً . إن الأطفال الآخرين ينتسبون إلى أعراق عدة . وفيما يُبدى كل طفل الصفات الأساسية للعرق الذى ينتمى إليه ، فإن هذه الصفات لم تعزز فى نفوسهم كما عززت فى نفس كارل . وبعبارة أخرى كان كل طفل ينتمى إلى قومه وعرقه انتماء طبيعياً غريزياً . ويبدو أنه لولا الدرس الذى تلقاه كارل عن جده لما بدا إلا كما يبدو الأطفال الآخرون — فى صورة لا تزمّت فيها ولا تصنع . لولا ذلك ما كان يبدو بهذا الوضع العسكرى فى المشى . كان هذا الوضع هو الفارق الأكبر بينه وبين غيره من الأطفال . ولولاه لما كان يبدو بهذه المظاهر التى كانت أحياناً تثير أعصاب يوسف ، وهو صبى سلافى يعيش فى الطابق الأسفل من البيت .

أما يوسف فقد كان أكبر من كارل بسنة واحدة تقريباً . وكان طفلا نشيطاً تنم أعماله كلها على مرح داخلى . كانت ملامح وجهه مشرقة رقيقة تشبه ملامح وجه أبيه الخباز . وكان من الأطفال الذين يتكلمون بكثرة ، والذين يبدون رغبة فى التعرف إلى كل شىء وإلى كل إنسان يتصل بهم . كان طُلَعة يثير الأسئلة فى كل مكان . وكان يحب أن يعرف أسماء الناس . وكان السؤال الذى يتوجه به دائماً هو « أين كنت » ؟ يسأل هذا السؤال كما لو يأمل أن تكون قد عدت للتوّ من مكان غريب عجيب يختلف عن كل ما قد رأى وعن كل ما على وجه الأرض . وكنت أنا نفسى أرتبك وأضطرب

دائماً لأنه كان يجب على أن أخبره بأنى لم أجئ من مكان أعجب من قلب المدينة الذى رآه هو خمس مرات على أقل تقدير .

كان كارل نادراً ما يركض ، بينا كان يوسف نادراً ما يمشى ، بل كان دائماً يركض أو يقفز أو ينزلق كأنما هو يسافر من مكان إلى آخر ليجد شيئاً أهم من السفر نفسه وأهم من الوصول إلى مكان آخر . كانت الحركة نفسها بعبارة أخرى تسره أكثر من نتيجة الحركة . كان يوسف يلعب بينما كان كارل يمثل دوراً من الأدوار . إن السلاڤى يعنى بنفسه أولا ثم بعرقه . أما التوتونى فيعنى بعرقه أولا ثم بنفسه . وظللت أراقب الأطفال الذين يعيشون فى الحى بضع سنوات . وأرجو ألا يتصور إنسان أنى أكلفهم شططاً بغية أن أكتب أقصوصة فإنى لا أكلفهم فى الواقع شيئاً ، وإن هذا الحادث الذى وقع بالأمس لا يعنى شيئاً ولا يشير إلى شىء لو لم أكن قد راقبت نشوء هؤلاء الأطفال . ولست آسف إلا على أنى لا أعرف شيئاً أكثر عن إيرڤنج الطفل اليهودى الذى كان يبكى بكاء مرًّا بينا كان كارل ويوسف يقتتلان .

فقد جاء إيرڤنج مع أمه وأبيه إلى هذا الحى منذ تشرين الثانى ، أى منذ ما يقل عن أربعة أشهر ، ولكننى لم أره ولم أعرف شيئاً كافياً عنه إلا بعد شهر عندما أخذ يظهر فى الشارع . إنه صبى سوداوى الظاهر تقارب سنه سن يوسف ويشبه على العموم النوع الباطنى من الناس ، الذى يثق بما توحى إليه به نفسه . وأنا أظن أن أبويه آخذان فى تعليمه الموسيقى ، فإنه تبدو عليه سيماء من سيصبح عازفاً ماهراً على الكمان أو البيان . فهذا رأس كبير يدل على الجد وهذا جسم نحيل وهذه أعصاب مرهفة .

وفيما كنت فى طريقى إلى البقال ذات مساء رأيت إيرڤنج يجلس على درجات بيته ، وكأنه استرسل فى أحلام جميلة من أحلام الطفولة التى تدهشها غرائب

الكون . وأحببت أن أتحدث إليه فى هدوء لأعرف ، إذا استطعت ، ما يدور فى ذهنه . ولكنه حين رآنى أقبل عليه نهض مسرعاً وصعد الدرج إلى بيته مضطرباً ، وقد أخذته الدهشة واستولى عليه الخوف الشديد . ولكم كنت على استعداد لأقدم فونوغرافى هدية ، لو عرفت ماذا كان يحلم به إيرڤنج ذلك المساء ، فإن هذا كان جديراً أن يوضح بعض الشىء سبب بكائه الليلة الماضية .

وكان كارل شديداً قاسياً يعرف مكانته حق المعرفة . وهو شديد الثقة بنفسه وإن ما تلقاه من التدريب لجدير بأن يصرفه فى كبرياء عما لا يدور حوله هو . أما يوسف فهو أقل منه شدة وقساوة ، وإن كان يثق بنفسه الثقة ذاتها ، لأن حب التطلع الدائم إلى كل ما حوله يحمله على الحركة الدائبة ، والعمل دون تفكير . إن وجود إيرڤنج فى الشارع ملموس ، ولكن فى وجوده شيئاً يبعث على التفهكة ويثير الحزن ، وهو لا يدريه ولا يستطيع تصويره . لكأنه وهو فى مكان ، دائماً فى مكان آخر . وإيرڤنج لا يثق بنفسه أى نوع من الثقة . إنه غير مدرب على طراز خاص أو غير خاص . إنه سوداوى المزاج وكفى . وسيعرف فيما بعد المعرفة كلها على ما أظن ، أين موقفه ، وسيعرّفه ذلك علاقته بكل ما حوله . لكنه الآن ضائع مرتبك إلى حد لا يستطيع عنده أن يدرك شيئاً من الأمر كله .

وقد وقعت الاضطرابات فى باريس منذ عهد قريب ، ثم عقبت ذلك الحرب الأهلية فى النمسا . ومما هو معلوم أن روسيا تجهز نفسها للدفاع ضد هجمات اليابان ، ولا يعرف إنسان ما يغشى أوربا كلها من الحوادث والقلاقل بسبب البرنامج الوطنى للدكتاتور الألمانى الحاضر .

وأنا أذكر هذه الحقائق لأن لها صلة بما سأقص عليك ، فإن فى الأرض كما يقول جويس أطفالا فى كل مكان ، وإن الحادث الذى وقع الليلة

الماضية لذو معنى عندى أوسع من هذه الحوادث التى تقع فى أوربا على ما يفسرها به كبار السن الذين تجاوزوا فى الظاهر على الأقل سن الطفولة .

وقد بدأ يوم الأمس غائماً ذا ضباب كثيف ، وتبع ذلك مطر عابر ، ولكن ما حلت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى كانت الشمس مشرقة والسماء صافية ، إلا من غيوم بيض قليلة العدد لا تدل على طقس معتدل أو هواء نقى أو جو صاف . وعلى هذا النحو يتغير الطقس فى سان فرنسيسكو ، فهو فى الصباح معتكر ممطر وفى الظهر قابل للتحول بسرعة إلى طقس ربيعى أو غير ربيعى من فصول السنة . على أن الناس هنا قلما يلتفتون إلى الفصول فإن فصول السنة كلها تتعاقب فى غير نظام .

وعند ما غادرت غرفتى هذا الصباح لم يكن أحد من صبية الشارع قد خرج من بيته . فلما عدت فى المساء رأيت يوسف وإيرفنج واقفين معاً على الجانب الذى كنت أسير فيه من الشارع يتحدثان قبالة بيت إيرفنج . وكان كارل يمشى على الجانب الآخر من الشارع أمام بيته فى هيئته العسكرية التى وصفت ، وقد بدا منتفخاً فى هيئة لطيفة تدل على شعوره بالفخر بنفسه . وكان خمس بنات صغار فى منحدر الشارع يلعبن إحدى اللعبات على الرصيف ، وهن أخت يوسف وأختان إيرلنديتان وأختان إيطاليتان .

وبعد المطر يصفو الهواء ويصبح السير خارج البيوت سارًّا . وكان الأطفال يلعبون فى الشارع تحت أشعة الشمس . وكان بديعاً أن يحيا الإنسان حياة ناشطة ملؤها الحب . وأنا أذكر هذا لأقول إن القبح الذى يلمّ بالقلب الإنسانى أحياناً لا صلة له بما يحدث فى الطبيعة أحياناً من مظاهر القبح . فنحن نعلم بأن الريف الأوربى حين كان فى ذروة جماله لم يعجل بهذه الحرب الأخيرة وأن نسبة من قتل فيها ظلت كنسبة من قتل أثناء الطقس المكفهر ، وأن ما حدث من

تأثير الطقس الجميل هو أن بعض الجنود الشبان نظموا شعراً رقيقاً فيه خلق وإبداع ، وعبروا عن رغبتهم فى العودة إلى بيوتهم وزوجاتهم وفى ألا يذهبوا ضحية الموت .

ولما عبرت فى طريقى عن يوسف وإيرڤنج ، سمعت يوسف يقول وهو يتحدث عن كارل : انظر إليه ، انظر إلى الطريقة التى يمشى بها ، لماذا يمشى على هذه الصورة ؟

ولقد علمت زمناً ما أن يوسف لم يكن مرتاحاً إلى الطريقة التى يمشى بها كارل فى انتفاخ وثبات ، ولهذا لم تبد لى ملاحظاته غريبة . ثم إنى قلت إنه كان طلعة بطبيعته يبحث عن كل ما يحيط به ، وإنه كان دائماً يوجه الأسئلة للناس . وقد بدا لى أن اهتمامه بمشية كارل كان فيه روح فنية من البحث ، وليس فيه شىء من السوء أو الشر . ولم أنتظر لأسمع إيرڤنج وهو يجيب ، بل توجهت رأساً إلى غرفتى لأكتب تحريراً كان يجب علىّ أن أكتبه . فلما انتهيت منه وقفت على نافذة غرفتى أتفحص الشارع . كانت البنات قد اختفين ، لكن كارل ظل عبر الشارع كما ظل يوسف وإيرڤنج معاً . وأخذ الجو يظلم والشارع يهدأ هدوءاً شديداً .

والآن لا أدرى كيف وقع ما سأفضى به إليك . فلقد تخيلت عند ما أخذ يوسف وإيرڤنج يعبران الشارع أن أمة برمتها تتحرك بجبهة جيشها إلى حدود أمة أخرى . ولقد بدا الصبية الصغار أبرياء إلى حد يثير الحب وبدت الأمم كلها أشبه ما تكون بالأطفال ، ولذلك لم أتمالك من الضحك . وعجبت ، فالأرجح أن حرباً أخرى ستقع غير بعيد ، وأن الأطفال سيملأون العالم ضجيجاً ، ولكن ما سيقع سيكون فى الأرجح شبيهاً جداً بما يقع الآن ، لأننى واثق من أن يوسف وكارل سيجهران بالكراهية التى يضمرها أحدهما لصاحبه — تلك الكراهية البلهاء الذاهبة بالقوى ، والتى لا تكون إلا من الجهل والفجاجة

التى تعبر عن نفسها بأن يضرب إنسان آخر وأمة أخرى بدافع من تلك الكراهية السخيفة، وذلك لتسيطر أمة على أمة أخرى أو تمحوها من الأرض .

كان صبيان صغيران إذن يقتتلان وكان صبى ثالث يصيح . وكانت أثناء ذلك تصطلى بنار المعارك أمم برمتها . لم أستمع إلى ما قاله يوسف لكارل ولا إلى ما قال كارل ليوسف ولم أدر بالضبط كيف بدأ القتال ، ولكن دار بخلدى أنه بدأ منذ أمد طويل قبل أن يشتبك الصبيان فى قتال . بدأ منذ سنة أو ربما منذ قرن . رأيت بعينى يوسف يتناول كارل ورأيت كلا منهما بلطفه وجماله كما رأيت كارل يدفع يوسف ورأيت الصبى اليهودى الصغير يراقبهما فى وجوم وذعر بل فى ذهول تام . ولما بدأ التوتونى الصغير والسلافى الصغير بضرب أحدهما الآخر ضرباً مقصوداً أخذ اليهودى يبكى . ولقد كان هذا جميلا — أعنى بكاء اليهودى الصغير وليس القتال الدائر . ولم يستغرق الحادث إلا هنيهة ، لكن معناه كان شاملا . وكان أجمل ما فى الأمر وأمتعه هذا البكاء الذى سمعت . لماذا بكى الصبى ؟ لم يكن له دخل فى الأمر . ما كان إلا شاهداً كما كنت أنا شاهداً ، فلماذا بكى ؟

لكم كنت أتمنى لو عرفت شيئاً أكثر عن هذا اليهودى الصغير ، لكننى لا أستطيع أن أتخيل سبباً لبكائه إلا ما فى النفس البشرية من قبح وكراهية . نعم إن القبح فى النفس البشرية والكره خلتان قائمتان لا ريب فيهما . ذلك جهد ما أستطيع أن أذهب إليه فى تأويل هذا الأمر .

صَوْم دَائِم

كان عطا الله يمشى الهوينا على رصيف الشارع ، وقد رمى ببصره إلى الأرض ومال برأسه إلى الأمام فى انكسار ظاهر وحزن عظيم . وكان الوقت قريباً من مغيب الشمس وقد خلت شوارع المدينة من أكثر الناس . كان الوقت رمضان ، وكان الناس كلهم قد انقطعوا للصوم على أثر ما جاء شيخ تقى إلى البلدة يعظ الناس ، ويخوفهم من النار فى اليوم الآخر .

ومع أن عطا الله لم يُلق بالا إلى الشارع ولا إلى الناس ، فإن أقل ما كان يجب أن يقع له هو أن يرى أحداً فى الطريق . وتعمد على عادته أن يقطع مسيره إلى البيت بحيث لا يراه أحد . لم يكن هذا دأبه فى رمضان فقط ، ولكنه كان دائماً هكذا — يختار الطريق الذى لا يلقاه فيه أحد ولا ينازعه تفكيره فيه أحد . وكان سهلا عليه فى رمضان أن يجتاز الطريق دون أن يعثر بإنسان أو يعثر به إنسان ، إذ ما عليه إلا أن يتأخر فى المسجد بعد صلاة العصر حتى يرى المؤذن وقد أخذ بالاستعداد للصعود إلى المئذنة فينصرف هو من أقرب طريق .

وكان أيسر على عطاالله فى رمضان أيضاً أن يتجنب كلام الناس . فإن كثيرين من الصائمين يعرفون أن الصمت هو إحدى القُرُبات إلى الله . وكانت هذه القُربى محببة إلى نفسه فإنها كانت توفر عليه مؤونة الكلام مع كثيرين من الفضوليين .

وكان الوقت قبيل أذان المغرب حين كان عطا الله يمشى الهوينا على رصيف الشارع . كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وكان الجو مكفهراً يتخطى أشهر الخريف وكان الهواء ثقيلا يشعر المرء منه بانقباض رازح . وكانت أشعة الشمس تتوارى عن هضاب المدينة . وفى وسط هذه الكآبة كان عطا الله يمشى من المسجد إلى البيت ، تنقل يداه من إبط إلى آخر صرة فيها أرغفة خمسة اشتراها من آخر بائع للخبز أدركه عند باب المسجد حين ترك المسجد .

وكان يفكر فى ابنه المريض وزوجته وابنتيه . وشرد تفكيره إلى مستقبل هؤلاء جميعاً بعد موته . إن ابنه صغير وإنه ليدلف إلى القبر ، وإن زوجته وابنتيه لا يقدرن على الكسب . وها إن الدنيا قد عبست منذ سنوات — منذ هبطت قواه فعاد لا يقدر على العمل .

فكر فى هذا كله وتداعت خواطره ، فأخذ يحلل المستقبل تحليلا دقيقاً . ولكن يداً رفيقة ربتت على كتفه الأيمن فقطعت عليه خواطره ، وأحس فى التربيت لطفاً ولكنه أحس فيه استعلاء وعرامة كذلك . ونظر إلى يمينه فإذا هو الشيخ فضل الذى يؤمه فى الصلاة الجامعة بالمسجد . ومع أن ما فى حركة يد الشيخ فضل من الاستعلاء آلم عطا الله وأزعجه ، فإنه ارتاح إلى أن يكون ذلك من الشيخ فضل نفسه لا من غيره ، فقد كان يجد فى سريرته إكباراً لهذا الشيخ وإعظاماً له . كان يؤم فى الصلاة بتؤدة وكان إذا أم فى صلاة التراويح أداها على خير ما تؤدى صلاة ، فإن غيره من أئمة المسجد كان يؤديها فى سرعة آلية ، كأنه يتخلص من واجب ثقيل . ورأى أن الديانة السمحة تقربه إلى هذا الشيخ وإلى غيره من المسلمين الذين عامت منزلتهم .

وسأله الشيخ فضل فقال :

ـ لا بد وأنك ذاهب إلى بيتك .

قال عطا الله :

ـ نعم

قال الشيخ :

ـ هل لك إلى الإفطار معى اليوم ؟

فاختلج عطا الله اختلاجة سريعة خفية . كان يتوقع كل شىء فى دنياه إلا أن يفطر فى بيت كبيت الشيخ فضل ، ولكنه مع ذلك ازداد ارتياحاً وهز رأسه فى غير وعى أمارة القبول ، وبدت عليه علائم الغبطة والافتخار . وكان عطا الله يحب أن لو يرفض دعوة الشيخ ليعود إلى منزله ، ولكنه لا يدرى كيف تغلبت عليه هذه الدعوة .

إن ابنه فى البيت مريض جداً وفى حاجة إلى عناية تنقذه . لكنه الآن لا يستطيع الرفض . وامتد خياله فتصور البيت الذى سيدخله عما قريب . لا بد وأن يكون مليئاً بالكتب الضخمة التى يحضر الشيخ بعضها إلى حلقات الدرس كما لا بد وأن يكون مفروشاً بالحصير النظيف والفرش البيض النقية . تصور هذا وتصور معه ما لا بد وأن يكون الله قد منّ به على الشيخ من ورع وتقوى .

وأحس الشيخ فضل سهوم صاحبه فتداركه وقال :

ـ ليس بيتى بعيداً من هنا ، تفطر معى ثم تذهب إلى أهلك مصحوباً بالسلامة .

وسار عطا الله مع الشيخ إلى منزله ، وبعد قليل دب إليه إحساس من المضض والألم . شعر أن مكانة الشيخ فضل أعلى من مكانته وتذكر ابنه المريض ، وعائلته التى تنتظر الخبز الذى يتأبط ، وأمعن فى التفكير . هل بقى من خبز البارحة شىء يتبلغون به ، وهل الخبز وحده يكفى ؟ وأدرك وهو ماض

فى سيره تلبية لدعوة الشيخ ، كأنه قد اقترف إثماً .

وعاد الشيخ فضل فقال :

ـ أراك كثيراً فى المسجد فبماذا تشتغل ؟

فأجاب عطا الله :

ـ لا شغل لى اليوم ، فقد ذهبت قدرتى على الشغل كما ترى .

قال الشيخ :

ـ لك عيال ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، زوجة وابنتان ، وابن مريض .

وتلعثم ثم اندفع فقال :

ـ بعد فطورى معك أرجو أن أنصرف إليهم مسرعاً .

قال عطا الله ذلك وصوته متهدج يكاد ينفجر ، فأدار الشيخ عنان الحديث وهو يقول متصنعاً الابتسام :

ـ لك مورد على كل حال تعيش منه ، إن الله لا يقطع أحداً من رزقه .

فقال عطا الله :

ـ . . . لى الله . أنا لست فى ضيق ، الحمد لله .

وأحس الشيخ فضل على الرغم من ذلك فقر عطا الله وعسر حاله . وكان قد اقترب من منزله فخطا مسرعاً يمهد الطريق لصاحبه . وألحت على عطا الله الأفكار آنئذ : ترى كيف يكون بيت الشيخ ، كيف تكون مائدة الإفطار التى سيدعوه إليها عما قريب ؟ وتذكر زوجته وابنتيه فخفض بصره ، وانقطع حبل تفكيره . وأدركه الشيخ فضل ففتح الباب فدخل ومضى الشيخ أمامه حتى أجلسه فى غرفة الضيوف وخلاه هناك . وأضحى عطا الله وحده مرة ثانية فنظر بسرعة إلى ما فى الغرفة ، ثم أخذ يتفرس بدقة ، فشعر بنفسه تتراخى وبهمته

تهبط ، وأحس كأن الدنيا تطبق عليه ورغب فى أن يموت . أحس بالفارق العظيم الذى يفصله عن الشيخ فضل ، على الرغم مما اطمأنت إليه نفسه قبل قليل من قرب الشقة بينهما . ورأى الأثاث يختلف كل الاختلاف عما تخيل ، فجدران الغرفة تكاد كلها لا تبين مما غطيت به من ستائر وزخارف . ونظر إلى الأرض فرآها مفروشة بالسجاد السميك الفاخر . وأشد ما لفت نظره صورة كبيرة للشيخ . كانت صورة نصفية ، فلو وهبت الروح ما استطاعت أن تعيش . ولذلك ارتفع الإثم منها . فأحس لذلك براحة ، ثم عاود النظر فى الغرفة وتفحص أرائكها الضخمة ومتكآتها الحريرية ، فتحير فى مجلسه ثم اطمأن ، فجعل خده على يده وأطرق . وحاول أن يبدد كل انتقاد ثار فى نفسه لكن شيئاً واحداً ظل يعاوده : أليس هذا كثيراً ؟ ومر بخاطره شبح ابنه يتلوى مريضاً فى فراش رقيق على أرض جرداء فهبطت همته مرة أخرى .

وفى هذه اللحظة دخل الشيخ فضل فدعاه إلى المائدة . فجلس على كرسى إلى طاولة ونظر فأظلمت الدنيا فى وجهه ودارت برأسه برهة . ورأى الشيخ ذلك فعزاه إلى تأثير الصوم . ولما هدأ روعه فكر فودّ فى نفسه لو قدم له الشيخ مائدة أبسط ، إذن لكانت أقرب إلى طعامه المحبوب الذى يتناوله عادة فى بيته ، وإذن لكان أقرب إلى الشيخ وأدنى . وأخذ دبيب من الكراهية لم يحسه قط فى حياته يتسلل إلى نفسه .

وأذن الوقت فأفطر الشيخ فضل مبتدئاً بكوب من الماء . فمد عطا الله يده إلى كوب مماثل بجواره فسمى بالله وجرعه . ثم رأى الشيخ يتناول من صحفة صغيرة تمراً حجازياً أشقر ، ففعل كما فعل الشيخ . وعندئذ تذكر السنة النبوية فهدأت نفسه على أن أتاح الله له أن يفطر كما تتطلب السنة الشريفة . وبدا له آنئذ كأن الفقر يحول أحياناً دون أداء الواجبات الدينية . وساد

صمت طويل لم يسمع خلاله إلا أصوات الملاعق وحركات الأيدى تدير الصحون . وأخذ عطا الله يتناول الطعام من كل ناحية على المائدة فى غير نظام، واكفهر وجهه ثانية فى وضوح يكاد ينطق بالبؤس والكآبة . وأخذ وجهه يتصبب عرقاً واغرورقت عيناه ثم انفجر فى إجهاش خافت متردد كان يخنقه لئلا يسمعه الشيخ أو يفهم معناه . ثم أخذ يكفكف شجونه والشيخ يلحظ هذا كله . وأخذ الشيخَ العجب . لقد علم أن ابن صاحبه مريض ، لكن ذلك فى نظره لم يكن كافياً لتأويل ما يحدث أمامه . ولقد كانت عادته أن يُحضر كل ليلة فى رمضان إلى بيته من يفطر معه ، وكانت تلك مع ذلك أقل الليالى حفاوة فقد تعود أن يحضر معه أكثر من فقير واحد . لكنه هذه المرة رأى نوعاً جديداً من الفقر . ورأى أن أفضل ما يستطيع أن يفعل هو أن يغادر غرفة المائدة ليخلى السبيل لشجون صاحبه ، ففعل دون استئذان ومكث زمناً عاد بعده وقد فرغ صاحبه من فطوره . ولم يستقر عطا الله بعد هذا شيئاً بل استئأذن فودع الشيخ وتناول الأرغفة الخمسة التى كان يتأبط ثم خرج .

وفى الطريق أرخى العنان لشؤونه وشجونه معاً . فتذكر ولده وابنتيه وزوجته فخفق قلبه حبًّا وحناناً وجفف دمعه ، وهرول حتى وصل إلى بيته فدخل فوجد كل شىء صامتاً كالموت . وأقبل توًّا على فراش ابنه الملقى على الأرض فأحس جبينه وتلفت إلى زوجته العزيزة ثم أخذ يبكى . فأخذت زوجته تبكى معه فى صوت خافت . كان ابنه فى النزع الأخير . ومع ذلك استطاع أن ينعطف إلى زوجته فيسأل :

— أين هنية ومريم ؟

فأجابت :

— إنهما فى المطبخ .

ولم يكن البيت أكثر من المطبخ وتلك الغرفة التى يضطجع فيها ابنهما سليم . وكان باب المطبخ مغلقاً حين دخل عطاالله فلم تره ابنتاه ، وإلا لرحبتا به كالعادة وقبلتا يديه . وفطن إلى الخبز فنهض وذهب فحيا ابنتيه ثم قدم الخبز إليهما . لم ينظر إلى ما كانتا تصنعان ثم عاد وجلس على الأرض إلى جوار ولده العزيز .

ورأته زوجته على هذه الحالة فقالت فى لهجة عطف ومحبة :

ـ تأخرت الليلة على غير عادتك .

فقال وهو يشرق بدمعه :

ـ لبيت دعوة الشيخ فضل إلى الفطور ، ليتنى مت . لا أدرى لم فعلت ذلك !

فقالت الزوجة :

ـ لا بأس إن صحة سليم تتحسن .

فأشرقت أسارير وجهه فجأة .

لقد كان يثق باختبار زوجته ، ثم قال :

ـ إذن حضر الطبيب ؟

قالت الزوجة :

ـ لم يحضر . لقد ذهبت إليه ووصفت له خطورة الحال لكنه أبى أن يحضر .

فاقترب من زوجته والتصق بها وضمها إليه ثم أخذ ينشج بالبكاء . وقال :

إن الفقير فى هذه الدنيا وحيد . حتى إذا مات مات وحده . فإذا غطاء ابنه يتحرك ، وإذا ابنه يشخص إليه ويتصبب عرقاً ، ويفوه بكلام خافت . إنه يطلب ماء . وانفرجت شفتاه عن ابتسامه أشرقت فى عينى أبيه إشراقة

الضوء فى الظلام الدامس ؛ فمال على ابنه يقبله . واستأنفت نفس عطا الله الحياة . إنه سيرى ابنه معافى بعد حين . وسيراه عاملا يجدّ ليحصل قوت العائلة . وسيكون من النشاط والقوة بحيث يوفر لأمه وأختيه أياماً بيضاً لم يستطع هو فى الآونة الأخيرة أن يوفرها لهن .

وانعكس ذهنه إلى ماضيه كله . لا يذكر أنه استطاع يوماً فى حياته أن يضمن قوتاً كافياً لنفسه ولعائلته . وتساءل عما إذا كان يصح أن تودى الحياة به وبأبنائه على هذا النحو دون ذنب ودون مغيث . وأحس أن هذه الفكرة ستبدد فرحته بتماثل ابنه للشفاء فطردها ونهض ليأخذ مضجعه من الغرفة . ثم حمل نفسه على النوم فأغفى وهو يهذى :

— ليس هناك كثيرون مثل الشيخ فضل . إن أكثر الناس فقراء مثلى والصوم يسوى بينى وبين أكثر الناس . ليت الدهر كله رمضان . إنه جوع ، ولكن المرء يثاب عليه . فلأنو الصوم إذن يوم غد ، فما أحسن أن يمتد هذا الشهر المبارك الدهر كله فأستوى مع الناس فى صوم دائم .

الجندى المشوه

لأوليفر كولدسمث

لا أجد شيئاً أكثر شيوعاً ولا أصدق وقوعاً من أن نصف العالم لا يعلم كيف يعيش نصفه الآخر. إن ما يقاسيه معظم الناس من متاعب ومصائب يمثُل أمامنا ليسترعى أنظارنا . وإن هذه المتاعب والمصائب لتشخص شخوصاً جليًّا يستفز النفس إلى الحماس والفورة . إنى أدعو العالم إلى أن يتبصر بهؤلاء النبلاء من الناس الذين يعانون ما يعانون . إن الكثرة المطلقة لترزح تحت كابوس هذه المصائب وهى واعية أن عدداً من الناس يعطف عليها ويشعر شعورها فيتملكها من ذلك إحساس من الراحة والإعجاب الممزوجين بالألم .

ولست أجد نبلا اسمى ولا إباء أشد من أن تتحمل سوء الطالع الذى ينتابك بثبات وعزم ، فى حين يتطلع إليك العالم كله تطلُّع العارف بما قد أصابك . إن هؤلاء الناس فى مثل هذه الأحوال يتصرفون تصرف الشجعان الأباة ، يدفعهم إلى ذلك دافع الحاجة . ولكن هذا الذى يتغلب بجرأة على ما يعانى من الشقاء ، الذى يتصرف تصرفاً هادئاً لا يبالى فيه ما حوله حين لا يكون له أصدقاء يشجعونه أو معارف يعطفون عليه أو حتى أمل يهدئ روعه ويحد من سوء طالعه ، إن هذا الرجل لعظيم حقًّا سواء أكان مزارعاً بسيطاً أم وزيراً خطيراً . إنه لعظيم يستحق الإعجاب

ويجب أن نتطلع إليه بحرمة ، نقتفى أثره ونصطنع طرائقه وأساليبه .

وبينا تعظم مصائب الكبراء فيعبّر الناس لهم عنها فيسمونها نكبات ، وبينما يفصح هؤلاء السادة عن متاعبهم بأساليب الفصاحة كلها تجد شقاوات الفقراء لا يعبأ بها أحد ، ولا يعبر عنها أحد ، ومع ذلك فإن من هؤلاء الفقراء من يتحمل فى اليوم من المشقات والآلام ما يفوق أضعاف ما يكابده طوال حياتهم أولئك الذين رفعهم الله بالمال إلى عليين . لا يستطيع أحد مثلا أن يتصور المتاعب التى يتعرض لها جنودنا وملاحونا البسطاء دون ما تذمر ولا أسف ، ودون ما اعتراض على الله أو استصراخ لأحد أو استدعاء لإنسان بغية أن يعجب بشجاعتهم . إن أى يوم من أيامهم لشقاء كله ومع ذلك فإنهم يرحبون بمصيرهم غير متململين ولا ضجرين .

فما أشد ثورة نفسى حين أستمع إلى أوفيدٍ من الناس أو شيشرون منهم يشكو بفصاحة سوء حظه ويفضى بمتاعبه — وإن معظم ما ألم به لعدم استطاعته أن يزور بقعة معينة من الأرض أناط بها على شكل سخيف فكرة من أفكار السعادة التى يتخيلها لنفسه . إن آلامه لهى السعادة نفسها لو تقارن بها ما يتعرض له وينوء به كثيرون من الفقراء المغامرين ، دون قلق أو ضجر . لقد أصاب حظه من الطعام والشراب والنوم ، وإن له لعبيداً يخدمونه ، وإنه لمطمئن إلى ينبوع رزقه ينساب مدراراً مدى الحياة ، حين يرغم كثيرون من إخوته التاعسين من البشر على أن يضربوا فى الأرض بلا صديق يعزيهم ويؤازرهم أو ملجأ يعصمهم من وطأة الجو أو شدة الدنيا .

وقد ألقى بى فى خضم هذه الأفكار والتأملات ، ما بعثته فى نفسى منذ أيام ، مقابلةٌ لرجل فقير عرفته يوم كنت صبيًّا . كان هذا يلبس معطف بحار يسأل الناس فى أحد أزقة البلد ، ويجر رجلا من الخشب . عرفته من قبل

شريفاً مجداً . فثار فى نفسى أن أعرف ما أودى به إلى وضعه الحاضر. وبعد أن تقدمت إليه بما يسر الله لى، رغبت فى أن أعرف سيرة حياته ، والسبب الذى آل به إلى نكبته التى حاقت به . أما هو فقد كان مشوهاً حقاً، على الرغم من أنه كان يلبس لباساً نظيفاً . اتكأ على عكازته ومال برأسه ، وهيأ نفسه فى وضع يتمكن معه من الجواب على ما أردت ، وسرد قصته فقال :

« إذا أردت معرفة سبب سوء طالعى يا سيدى ، فلست أستطيع أن أقول إنى عملت أكثر مما عمل غيرى . فإذا غضضت النظر عن ساقى التى فقدت ، وعن حاجتى إلى التكسب بسؤال الناس ، فإنى ولله الحمد لا أعلم سبباً لشقاء أو تعاسة . خذ (بيل بتس) أحد أفراد فرقتنا مثلا ، فقد أضاع كلتا ساقيه وإحدى عينيه . فأحمد الله على أنى لم أصب بهذا الأذى كله .

« ولدت فى (شورشير) وكان أبى عاملا ، ثم مات عند ما كانت سنى خمس سنوات فأدخلت إلى ابرشية، فقد كان أبى كثير الترحال . ولم يبت رجال الأبرشيه فى الأبرشية التى يجب أن أنسب إليها ، كما لم يبتوا فى أمر مكان ولادتى ، ولذلك دفعوا بى من أبرشية إلى أخرى على غير هدى . ثم عن لهم أخيراً أن ينسبونى إلى إحدى الأبرشيات . وكان لى شىء من الميل إلى الأدب وكنت قد صممت على أن أعرف لغتى ، ولكن الحاجة إلى العمل دفعت بى إليه حالما تمكنت من القبض على المطرقة . وهنا أخذت أعيش عيشة راضية ناعمة خمس سنوات متواليات. كنت لا أعمل إلا عشر ساعات كل يوم . وكان اللحم والشراب ميسورين لى أتناولهما مقابل عملى . أجل لم يكن يؤذن لى بالخروج من البيت خشية أن أهرب كما كانوا يقولون . ولكن أى هروب ، لقد كنت حراً فى البيت كله ، وكانت ساحة البيت منفسحة أمامى وما كنت أحتاج إلى غير ذلك ، فقد كان يكفينى كل الكفاية . ثم صرت إلى خدمة مزارع . كنت أبدأ العمل مبكراً وأنتهى منه متأخراً . لكنى كنت آكل وأشرب ما يقوم

بأودى كما كنت أحب عملى حبًّا جمًّا. ثم مات المزارع فاضطررت إلى أن أعول نفسى ، فأخذت أجوب الآفاق أفتش من جديد عن عمل .

« وعلى صورتى هذه كنت أنتقل من مدينة إلى أخرى أعمل حيث أجد العمل وأجوع حين لا أجد منه شيئاً . وحدث ذات مرة أنى كنت أقطع أحد الحقول ، وكان صاحب الحقل قاضياً . رأيت أرنباً يعبر الطريق على مقربة منى فوسوس إلى الشيطان أن أضربه بعصاى . وقدر الله فقتلت الأرنب. وكنت أحاول أن أحتمله حين رأيت القاضى يعترض سبيلى ، ويسلقنى بلسان حاد ، وينعتنى بنعوت النذالة واللصوصية وما إلى ذلك . ثم قبض على مخنقى وطلب إلى أن يعرف تاريخ حياتى . فوقعت إلى الأرض جاثياً على ركبتى وتوسلت إليه أن يعفو عنى . ثم طفقت أسرد له سرداً مفصلا كل ما عرفت عن منشئى وأصلى وحياتى . ومع أنى أفضيت بشىء صحيح ، فإنه اتهمنى بالكتمان فحولت إلى المحاكمة وصدر الحكم علىّ بأننى كنت مجرماً ، وبعث بى إلى لندن ثم إلى نيوكيت ، على أن أنقل كما ينقل المتشردون .

« وقد يقول الناس عن السجن والمساجين ما يقولون، لكنى لا أكتمك أنى وجدت نيوكيت من أكثر الأماكن التى عرفتها فى حياتى ملاءمة لى. كنت أستطيع أن أملأ معدتى بالطعام والشراب ولم أكن أعمل شيئاً ، ويبدو أن هذه الحياة كانت أنعم وأجمل من أن تستمر طويلا . فحملت من السجن بعد خمسة أشهر إلى إحدى السفن، ثم أرسلت إلى المزارع مع مائتى رجل آخرين. وكنا جميعاً محشورين فى مكان ضيق ، ولذلك مات منا ما يزيد على مئة ، من جراء الهواء الفاسد . وكان الباقون على قيد الحياة مرضى ، يعلم الله . فلما وصلنا إلى الشاطىء باعونا إلى أصحاب المزارع ، فكان على أن أعمل سبع سنوات أخريات. ولما لم أكن متعلماً فقد كان على أن أعمل بين البربر، وقمت بعملى حق القيام كما يتطلبه الواجب .

« فلما انتهت مدة السجن التمست طريقى إلى بلادى . فما كان أشدنى فرحاً

عندما وقعت عيناى على قريتى الحبيبة مرة أخرى. لقد أحببت بلادى لكننى خشيت أن أقع ثانية تحت طائلة الاتهام ، ولذلك لم أقصد بلاداً أخرى ، وإنما بقيت فى القربة أقوم بما أحصل عليه أحياناً من الأعمال الصغيرة البسيطة.

« وكنت عظيم السرور والارتياح إلى هذه الحال ، حتى كنت عائداً من عملى إلى بيتى ذات مساء فضربنى رجلان وطرحانى أرضاً ثم طلبا إلى أن أقف مرة أخرى . كانا لصين من عصابة . فقدمت من أجل ذلك إلى العدالة ؛ فلما عجزت عن أن أزيدهم بياناً عن نفسى خيرت بين أن أسلك فى الجندية أو أنتظم مع البحارين ، فاخترت سلك الجندية ، وخدمت فى هذا العمل ، فخضت غمار معركتين فى الأراضى المنخفضة معركة (ڤال) ومعركة (فونتينوى) ولم يصبنى إلا جرح فى صدرى هنا ، ولكن طبيب فرقتنا أعادنى ثانية إلى حالتى الصحيحة .

« فلما انعقدت السلم أخرجونى فأصبحت بلا عمل ، وكان جرحى ينكأ أحياناً . لكنى التحقت بخدمة شركة الهند الشرقية ، فحاربت الفرنسيين فى معارك ست وإنى لواثق من أنى لو كنت أحسن القراءة والكتابة ، لرقيت إلى منصب عريف. غير أن الحظ أخطأنى ، فلم أرق لأننى ما لبثت أن مرضت فأذن لى بالرجوع إلى بلادى مرة أخرى . وكان فى جيبى أربعون جنيهاً فى بداية هذه الحرب . وما كان أشد رغبتى فى أن أعود إلى بلدى لأنفق ما جمعته من النقود . ولكن الحكومة كانت فى حاجة إلى الرجال ولذا عادوا بى إلى الخدمة البحرية قبل أن أضع قدمى على أرض وطنى .

« وقد رأى العريف أننى كنت امرءاً عنيداً . وأقسم جهد يمينه أنى كنت أعرف عملى حق المعرفة ، وأنى كنت أتظاهر بالكسل . ولم أكن علم الله أعرف شيئاً من عمل البحر ، ومع ذلك فقد كان يضربنى دون أن يعرف هو سبب ذلك . لكن الأربعين جنيهاً ظلت معى ، وكان ذلك يعزينى بعض التعزية ؛ ولقد كان

مقدراً لى أن أحتفظ بالنقود إلى هذا اليوم ، ولكن سفينتنا وقعت فى أيدى الفرنسيين ففقدت كل شىء .

« وحمل بحارتنا إلى برست فمات عدد كثير منهم لأنهم لم يألفوا الحياة فى السجون ، أما أنا فلم يكن يضيرنى ذلك شيئاً إذ كنت قد تعودته . وكنت نائماً فى إحدى الليالى على مهاد من الألواح تدثرنى غلالة دفيئة ، فقد كنت مغرماً بالنوم المريح . فأيقظنى العريف وهو يحمل مصباحاً فى يده . قال جاك: أريد منك أن تضرب عنق الحارس الفرنسى هناك ، فقلت وقد حملت نفسى على الاستيقاظ ، إن مؤازرتى لك فى هذا الشأن أمر بسيط عندى . قال اتبعنى ، فإنى أرجو أن نستطيع القيام بالعمل حالا. فنهضت ، وعقدت غلالتى على وسطى فقد كانت كل ما أملك من ملابس ثم مضيت لأقاتل الفرنسيين . إنى أكره الفرنسيين لأنهم جميعاً عبيد ، ولأنهم يلبسون أحذية من الخشب .

« ومع أننا لم نكن مسلحين فإن إنجليزياً واحداً يغلب خمسة من الفرنسيين ، فى كل وقت وآن . ذهبنا إلى حيث وقف حارسان فاندفعنا نحوهما ، وقبضنا على ذراعيهما فى لحظة ، وقذفنا بهما إلى الأرض ، ومن هناك اندفع تسعة منا معاً إلى الميناء ، فاستولوا على القارب الأول الذى صادفناه ، وخرجنا من الميناء فأبحرنا . ولم يمض على ذلك ثلاثة أيام، حتى وقعنا أسرى فى يد قائد السفينة الحربية (دورست) ، وقد سر هذا القائد بالعدد الذى استولى عليه ورضينا نحن بما كتب لنا . لكن نصيبنا لم يكن بالحُسن الذى ارتقبنا فقد وقعنا أسرى خلال ثلاثة أيام فى يد السفينة (بومبادور) ، وكانت ذات أربعين مدفعاً فى حين لم يكن معنا إلا ثلاثة وعشرون . فأسرنا بعد قتال استمر ثلاث ساعات . وكنت شديد الإيمان بأننا كنا نحن الذين يجب أن يكتب لهم الفوز لو كان عدد الذين آزرونا من خلفنا أكثر . كنا إذن استولينا على الفرنسيين ؛ ولكننا

مع الأسف فقدنا جميع رجالنا عند ما أشرفنا على الفوز.

« وهكذا وقعت مرة أخرى فى أيدى الفرنسيين ، ولو أنه رُجع بى إلى برست لقاسيت شديد الآلام. لكن حسن الطالع أعادنا بالسفينة (فايبر) . آه .. وقد كدت أنسى أن أخبرك بأننى جرحت فى هذا القتال فى مكانين ، فأضعت أربعاً من أصابع يدى اليسرى كما فقدت ساقى. ولو قد أسعدنى الحظ بفقدان ساقى ويدى على سفينة الملك لا على سفينة العريف ، لمنحت اللباس والطعام بقية حياتى. لكن ذلك لسوء طالعى لم يقع . إن بعض الناس يولدون وفى أفواههم ملاعق من الفضة وبعضهم يولد وفى فمه مغرفة من الخشب. ومهما يكن من شىء فإنى أشكر الله لأنى أتمتع بصحة جيدة ، وسأحب الحرية ، وأحب إنجلترا ما حييت. الحرية والثروة وإنجلترا إلى الأبد » .

قال هذا واختفى يظلع فى مشيته ، وخلفنى مفعماً بالإعجاب من جرأته وقناعته . ولم أملك نفسى بعد ذاك من الاعتقاد، بأن معاناة التعاسة والشقاء تعرفك إليهما وتفهمك إياهما أكثر من دروس الفلسفة . وهذه المعاناة نفسها أجدر أن تعلمك الكراهية لهما والاشمئزاز منهما .

بين الحرمين

كان عبد الباسط يرضى عن شيئين فى دنياه ويسخط على شيئين : كان يرضى عن اسمه ومهنته ، ويسخط على الحياة جملة ، وعلى جاره سليم .

وهو يعرف لماذا يحب اسمه ، ولكنه لا يعرف لماذا يحب مهنته . إنه عطار ، وإن الزقاق الذى يعمل فيه من المدينة لضيق متعرج مظلم . وليست المهنة رابحة ، فقد ظل طوال عمره يحاول أن يتخلص من مكر صاحب الدار التى يسكنها بالأجرة ، بأن يبنى له داراً صغيرة يسكنها ، لكنه ما استطاع أن يفعل شيئاً من ذلك على الرغم من طول جهد واقتصاد .

أما اسمه فإنه يعرف لماذا يحبه . لم يسمع فى عمره أن إنساناً آخر كان يدعى «عبد الباسط» . ولذلك كان يشعر بتفرد يدعو إلى الزهو والخيلاء . فإذا قيل عبد الباسط فى الحى الذى يسكن فيه لم يدل هذا على غيره ، وإذا قيل «عبدالباسط» فى الزقاق الطويل الذى يعمل فيه لم يدل هذا على غيره كذلك .

لكن هـــذا لم يكن كل السبب فى أنه كان يحب اسمه ويعجب به وبنفسه معه . بل إنه يذكر فى جلاء مرة كيف ابتاع منه شيخ من شيوخ الدين فى البلدة مسواكا فقال له وقد سمع الشيخ من جاره أن اسمه « عبد الباسط » :

ـــ اسم جميل ، أتدرى قول النبى صلى الله عليه وسلم يا عبد الباسط ؟

فقال عبد الباسط بلهفة : لا يا مولاى .

– قال الشيخ : النبى قال : خير الأسماء ما حمّد وعبّد :

سمع عبد الباسط هذا فبدا عليه أنه لم يفهمه فأوضح الشيخ له فى سرعة معناه ، ثم قال فى مزاح :

– إنى أرى على جبينك أنك ستحج بيت الله الحرام .

فلم يحر عبد الباسط جواباً ولكن كلمات « بيت الله الحرام » اخترقت أذنه فى حدة ورست فى ذهنه . وانصرف الشيخ ولم يعد . لكن عبد الباسط لا ينسى وقار ذلك الشيخ وشدة بياض لحيته وإشراق وجهه وصباحة محياه . ومع أن سنوات عديدة الآن قد مرت على حديث الشيخ فإن عبد الباسط ما ما يزال يذكر ذلك الشيخ ، بل إن ملامح وجهه لتزداد رسوخاً فى ذهنه كلما مرت الأيام وإنه اليوم ليبتسم إذا ذكر الشيخ « أنك ستحج بيت الله الحرام » .

وليست كراهية عبد الباسط لجاره سليم مجهولة السبب عنده ، أو عند أصحابهما من بائعى السوق المجاورين . فإن عبد الباسط كان منذ انصراف الشيخ عنه يوم ابتاع السواك إلى اليوم يذكر لجيرانه وللناس أنه « سيحج بيت الله الحرام » وأن اسمه خير من أسمائهم جميعاً ، فإن الشيخ قد امتدحه ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً يقول : إن اسمه جميل .

أما لماذا يكره عبد الباسط الحياة كلها فسؤال لا يدرى له جواباً . كان دائماً يتذمر فإنه إلى اليوم لم يجمع شيئاً من المال يستطيع به أن يبنى بيتاً صغيراً يأوى إليه ، وكان دائماً يتذمر فى نفسه من أن المال القليل الذى جمعه لا يكفى للحج إلى بيت الله الحرام .

وسمع مرة أن الدراهم التى يجمعها المرء فى سبيل أن يتزوج أو يحج أو يبنى بيتاً دراهم ميسورة : يطرح الله فيها البركة : . وهو قد تزوج ودفع مهر الزواج وتضايق من ذلك ولم ييسر له المال الذى استدانه من أجل أن يتزوج ، لكنه ظن أن الحج خير من الزواج. وأخذ الآن يجمع المال من أجل ذلك . ولم

يكن يعرف أحد فى الدنيا حتى ولا امرأته أنه ادخر شيئاً . لقد كان يجمع الدانق إلى الدانق فى صرة صغيرة فى ثقب فى جدار مظلم من الدكان لا يدرى به أحد . واستمر فى ذلك زمناً . وأخيراً عزم على أن يحج إلى بيت الله الحرام .

وأخذ يبحث سرًّا عن الطريق إلى مكة وإلى المدينة المنورة . فعرف طريق القوافل التى تسير من بعلبك إلى معان ومنها إلى تبوك ثم إلى المدينة المنورة فمكة المكرمة . ولم يكن يدرى عندما ذكر له الشيخ ذو اللحية البيضاء « بيت الله الحرام » صلة ذلك بمكة أو بالكعبة المشرفة ، لكنه الآن عرف ، فقد طالما سأل فى السنوات الماضية سرًّا عن طريق الحج وعن زاد الحاج فيه من طعام وشراب وعما يحتاج إليه من نفقات ، كما عرف مفاوز الطريق ومخاوفها وانقطاع بعض الحاج فيها .

لكنه صمم العزم ، فقد كان سليم يشحذ همته لذلك ، حينما كان يسخر منه ومن اسمه ومن كلام الشيخ له بأنه سيحج بيت الله .

وفجأة أعلن ذلك السفر ، فاضطرب له أهله واضطرب له أهل السوق جميعاً وتغيظ منه سليم أيما تغيظ . وتحدد اليوم الذى سيغادر فيه البلدة . ولأول مرة بدأ سليم ينظر نظرة احترام إلى عبد الباسط . قالت له نفسه : « لا بد الآن وأن يكون هذا الرجل قد ملك من المال للحج وغير الحج ما لا قبل لى بمثله ، ولا بد وأن يكون من التدين والانقطاع لله ومن التصميم والحزم على غير ما كان يبدو لى» . وتوجس سليمٌ شرًّا من أن يكيد لعبد الباسط كيداً آخر أو يهزأ به أو يتحدث للناس عنه حديثاً فيه سوء .

واحتمل عبد الباسط ما جمع من الدراهم . واحتمل كذلك شيئاً من الزاد من تمر وعسل وخبز ، وأغلق دكانه وودع امرأته وقبل ولده وابنته بعد أن خلف

لهم ثلاث ليرات لتسد نفقاتهم وحاجاتهم أثناء الأشهر الثلاثة التى يحتاج إليها لقضاء فريضة الحج .

وكانت القافلة تتألف من عشرين حاجًا ، فيهم امرأتان عجوزان، ويحملهم جميعاً خمسة عشر جملا . ولم يستأجر عبد الباسط جملا وإنما قيل له إنه يستطيع المشى وإنه يمكن أن يركب حين يتعب حاج من الركب فيتنحى له عن راحلته دون أن يتقاضى منه شيئاً ، واستطاع أن يعلق زاده فى رحل جمل لقاء أجر زهيد وأن يمضى راجلا .

وخرجت القافلة فى الصباح الباكر ومضت فى طريقها إلى الجنوب على معالم عرفها الحادون عشرات السنين كابراً عن كابر تقصد المدينة المنورة . وأقبل الليل وحطت القافلة رحالها عند بئر خربة لا يبدو من آثارها إلا أحجار متناثرة . وأطبق الظلام فدخل الخوف الرهيب فى فؤاد عبد الباسط لأول مرة . وعاد أدراجه فتذكر كلاماً كثيراً ألقى فى روعه منذ أخذ الأهبة لهذا الرحلة . ووصل ذلك بما عرف عن فقر حاله ، وبما حاول طوال عمره من جمع للمال فى سبيل أن يبنى لنفسه بيتاً وبما أنفق من جهد فى سبيل هذه الحجة التى يرجو أن تكون آمنة مبرورة ، وبما عرف من نفسه من كراهية لهذه الحياة لا يدرى لها سبباً . وزخرت نفسه بهذه الهواجس مجتمعة فنكس رأسه وأرخى لنفسه العنان فانحدرت دموع عينيه ورأى هذا رائد القافلة فأقبل عليه يحدثه :

– ولكنك يا عبد الباسط بالفرح والسرور أجدر .

قال عبد الباسط :

– تعبت من سفرى اليوم وذكرت زوجى وولدى فأصابنى ما ترى . إنى تواق إلى مشاهدة (الروضة البهية) وإلى الكعبة الشريفة ولكن هل

أدرك غايتى وأعود إلى أهلى .

قال الرائد :

ــ وما الذى يورد هذا الخاطر إلى نفسك ، لقد مررت بهذا الطريق مرات ومرات وها إنى ما أزال حيًّا ، أفما تعرف أن الأعمار مقدورة ؟

قال عبد الباسط :

ــ مقدورة ، لكن ألم يمت أحد ممن رافقوك جوعاً أو عطشاً أو تاه فى هذه البيداء التى لا أول لها ولا آخر ، ثم لم يرجع إلى أهله ؟

قال الرائد :

ــ وقع ذلك ولكنه كان نادراً .

وأحس عبد الباسط بهبوط نفسه فتهالك ولوى برأسه وأخذ يبكى .

ولم يكن جباناً ولا أحس بخوف من الموت ، لكن عواطف مختلفة كثيرة انتابته فوجد المخرج فى البكاء .

إن المال الذى معه والزاد لا يكفيان الرحلة ، فإن بينه وبين المدينة المنورة رحلة شهر وأسبوع . وليست المدينة على كرامتها ووجود الروضة الشريفة فيها موئل حج ، فالحج عرفة وبين المدينة وعرفة مسيرة اثنى عشر يوماً . ثم هو يجب أن يعود هذه الطريق كلها أدراجه . وهو يتكىء الآن على صرة ثيابه فى مؤخرة الراحلة التى ألقت بمتاعها للراحة متعباً من آثار يوم واحد فكيف بأيام وأيام . وهو الآن قد أدرك أنه لم يتعود المشى من قبل على رغم ما كان يتصوره من تعود المشى بما كان يطويه من المسافات بين بيته ودكانه لحاجة أو لغير حاجة . وهو اليوم قد أدرك كيف اشتد الجهد بمسافرين حاجين من قبل فعجزوا عن السير فذهبوا تائهين فى الصحراء ، لم يعودوا إلى أهليهم ــ

فافترستهم وحوش البادية . وهنا انكمشت أعضاؤه بعضها على بعض وتذكر زوجته وطفليه فازداد اضطرابه وتفرقت نفسه . ولم ينقذه من هذا كله إلا أنه ذكر أن جاره سليم كان يريد به سوءاً ويتمنى أن لو تحول الحوائل بين عبد الباسط وحجته . وذكر مع هذا كذلك أن الأعمار محدودة وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، فعلت نفسه واشرأبت همته وابتسم قليلا .

وخيم الظلام فلم يسمع إلا تجاوب أصوات الكلاب عن بعد سحيق تقطع سكون الصحراء العميق . وهدأت أصوات الراحلين والقافلة ، وحتى أصوات الجمال تجترّ طعامها قد همدت ، إلا أقلها .

وأفاقت القافلة فجر اليوم التالى فصلى الركب الصبح على أنوار الأفق المشربة بالحمرة ، الندية بالنسيم الجاف ، وصلى عبد الباسط لكن آثار الأسى الذى تبدّى على حاله البارحة يوم أوى إلى فراشه كانت ما تزال تتنزى من نفسه وقسمات وجهه . وكانت تلك الصلاة من صلواته القليلة التى لم يستطع فيها أن يتوجه إلى الله بكل جوارحه ، والتفت إلى أعماق نفسه يبحث عن أسباب هذا التردد والاضطراب اللذين لم يعهد لهما هذه الحدة .

ولمع فى ذهنه أنه ضيق اليد عما يكفيه لرحلة الحج كلها ، وذكر قول الله عز وجل عن « حج البيت من استطاع إليه سبيلا » ، وخطر بباله قول أحد المشايخ فى المسجد مرة أن الذى يعمد إلى الحج وهو فى غير سعة يأثم . وأقض تفكيره أن يشعر أن سيأثم بدل أن يصيب ثواباً ، ثم استدرك ، فإن الله عز وجل لا بد وأن يثيبه على قدر مشقته . واطمأن إلى هذا ومضى يومه ذاك مع القافلة هادئاً مطمئناً أياماً عديدة يشبه بعضها بعضاً حتى أخذ كلام ركب القافلة يدور على المدينة المنورة .

وأطلت منائر المدينة الخالدة وضجت ألسنة القافلة بالدعاء « لبيك اللهم لبيك » . ولم يكن عبد الباسط يحفظ هذا الدعاء على بساطته لكن خفقان قلبه واضطراب نفسه كان أشد من ضجيج القوم كله . ودمعت عيناه ، فإن حبه للنبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر من حبه لأى شيء آخر . وقد أحب الروضة النبوية أكثر مما أحب مكة نفسها وعرفات. على هذا نما قلبه سواء أصح اتجاه هذا النمو أم لم يصح .

وأقبل على الروضة وتمسك بنافذتها وتهالك . لقد ذكر كل شيء هناك : ذكر زوجته وولديه وجيرانه فى السوق جميعاً ، ودعا لهم واحداً بعد واحد . فلما مر بخاطره سليم توقفت نفسه عن الدعاء واعتملت عواطفه لكنه اقتحم هذا الاعتمال وتغلب على ذلك التوقف وتدفقت نفسه فقال فى صوت عال مسموع « اللهم اغفر لسليم » !

وكان إلى جواره وهو يقول هذا عثمان التاجر الغنى الذى رافقه فى القافلة . فسأله .

— ومن سليم هذا يا عبد الباسط ؟

قال عبد الباسط — إنه جارى صاحب دكان .

قال عثمان — وهل هو غنى ؟

قال عبد الباسط — لا أدرى أظنه مثلى .

قال عثمان — ولمَ تستغفر له ؟

قال عبد الباسط — إنه يستحق هـذا إنه جارى وإن النبى ، وأشار إلى الروضة الشريفة ، أوصى بالجار . ولقد ذكرت الآن إيراد الشيخ فى المسجد لقول النبى بأنه صلى الله عليه وسلم ظل يوصى بالجار حتى ظن الناس

أنه سيورثه . وما الناس فى الدنيا كلها إلا جيرة . ثم قال والدمع يطفر من عينيه : « إنى لأحب سليما بعد اليوم . غفر الله لى وله » .

وانفتح لعبد الباسط أفق جديد منذ الآن . والتفت فى نفسه إلى الوراء . لقد كان يضيق بزوجته كل الضيق أحياناً حتى كان يضربها ويشتمها ، ولكنه اليوم يرمى بعين إلى بلدته وبأخرى إلى هذه النافذة التى يصلى إلى جوارها فيرتعش خجلا مما كان يفعل ، وأقسم فى نفسه ألا يفعل من ذلك شيئاً بعد الساعة . وانعكس فى مخيلته أنه كان يطفف الكيل إذ يبيع الناس ، فأقسم أن لا يفعلن ذلك بعدئذ .

وغدت القافلة منذ الصباح وأقبل على مكة وأحرم لأول مرة . وفكر كثيراً على طريقته فى لباس الإحرام هذا . ما أبسطه ! قطعتان من القماش ليس فيهما خيط بإبرة . ما أقل تكاليفهما ، وما أحسن الدنيا لو أن الناس يصطلحون فى كل مكان منها على هذا اللباس البسيط . إذن لكانت قطع أربع من هذه كافية لكل واحد من أفراد العائلة . وعرف بالحساب كم يكلف هذا كله لعائلته ... ثم خطر بباله أن الطقس فى بلده لا يلائمه هذا اللباس ، فداخله الغم من جديد ، وأحس مع هذا بقواه تتداعى . فلما كان المساء أناخ الركب واستراح ، أما هو فشعر بحمى شديدة تنتابه . وكان رائد القافلة إلى جواره فسأله عبد الباسط .

— أبعيدة مكة من هنا ؟

قال الرائد — مسيرة يوم واحد .

فافتر ثغر عبد الباســـط عن ابتسامة مجهودة . ونظر إليه الرائد بإنعام فإذا به يختلج وتشخص عيناه . فارتاع الرائد لهذا واقترب من عبد الباسط فسمع منه قوله وهو يجود بأنفاسه .

ـ ليت الناس يلبسون كالحجاج المحْرمين . كنت أستطيع دائماً أن أكسو أولادى ببعلبك . قبّلهم عنى متى عدت . قبّلهم وحيِّ زوجتى الحبيبة . يفقدوننى ، لكنهم يلقون الله .

ومضت القافلة فى الصباح الباكر تدلف إلى أم القرى ، تخلّف فى مراحها أثراً يكاد لا يبدو للناظر . كان ذلك أثر عبد الباسط وقد ووارى التراب . وكان شهيداً من حجاج الله فى جوار بيت الله الحرام .

ملاك الحُب

لأميل زولا

هل تسمعين المطر يا نانو يسفع النوافذ ، وإلى الريح تتنهد فى الدهليز ؟ إنها ليلة مخيفة ! ليلة يرتعد فيها البائسون على أبواب الموسرين ، الذين يرقصون داخل بيوتهم فى غرف متألقة بالنور ، تتدلى من سقفها ثريات المصابيح . انزعى حذاءك الحريرى هذا وتعالى فاجلسى أمام الموقد المتوهج . اطرحى عن كاهلك هذه الأناقة البالغة ، فإنى أريد أن أحدثك بقصة خيالية هذه الليلة .

فقد رُوى فى ماضى الزمان يا نانو أنه بنى على رأس جبل حصن يرد طرف الناظر إليه . كان كتلة متراصة من الأبراج والمتاريس والأسوار ذات السلاسل الغليظة . وقف الرجال وقد أسبغ عليهم الزرد والفولاذ ، من رؤوسهم إلى أقدامهم — وقفوا ليلا ونهاراً يحرسون قلاعه . ولم يكن أحد من زوار هذا الحصن ليتلقى شيئاً من البشر أو الترحيب ، إلا من كان سفاكاً محارباً . كان سيد الحصن يا نانو هو الكونت أنجيوراند .

ولو قد رأيتِ إلى هذا المحارب القديم يجوس خلال الشرفات الطويلة وسمعت انفجار صوته الخشن المخيف لأصابك رعب شديد ، كان مثله يصيب (أوديتا) ابنة أخيه ، وكانت أوديتا هذه صغيرة طاهرة جميلة . أما رأيت فى الربيع مرة أقحوانة مفردة بين أعشاب القريص تفتح وريقاتها فى الصباح الباكر تلتمس

لثمات الشمس الأولى ؟ كانت أوديتا مثل ذلك ، تعيش بين الفرسان الشداد قيّمة على عمها ترعاه وتكلؤه . وكانت إذا لمحته وقفت فجأة عن اللعب وامتلأت عيناها بالدموع . نمت فأضحت طويلة جميلة ، وكانت تتنهد من شيء لا تعرف معناه ، كما كان يستولى عليها حين ترى عمها اللورد ، رعب شديد لا يوصف .

كانت غرفتها فى برج صغير منعزل من الحصن ، تمضى وقتها فى زركشة الأعلام الجميلة . وكانت تجد عزاءها فى التقرب إلى الله بالصلاة وفى التفرج من نافذتها إلى خضرة الأرض السندسية وزرقة السماء اللازوردية . وكم كانت تفيق فى الليل من فراشها فتسعى إلى النافذة وتنظر إلى النجوم . وما أشد ما كان قلب هذه الصبية المدركة يطفر إلى الفضاء السماوى الفسيح ، تسأل الملائكة فى جو السماء عما كان يقلقها هذا القلق كله . وعلى أثر هذه الليالى المؤرقة ، وهذه الحوافز الأولى إلى الحب الذى لا تدرى كنهه ، كانت تمر بها حالات غريبة تدفعها إلى أن تعانق الفارس القديم عمها الفظ . ولكن نبرة قصيرة ، أو نظرة عابسة من هذا كانت تكبح جماح دوافعها فترتد إلى إبرتها مرة أخرى . أرى الحزن يغشاك يا نانو من أجل هذه الصبية البائسة ، أجل فقد كانت أشبه شيء بزهرة فواحة الشذى . وكان حبها وشذاها ممتهنين محتقرين .

وبينما كانت أوديتا البائسة ، تجلس يوماً إلى نافذتها تتابع بعينيها طيران حمامتين ، إذ سمعت صوتاً ناعماً من أسفل ، عند قاعدة جدار البرج ، فمالت بنفسها إلى الخارج فرأت شاباً جميلا علت شفتيه تغريدة ، وأخذ يلتمس الخير من ساكنى الحصن . ومع أنها أصغت الإصغاء كله ، فإنها لم تفهم ما قال . ولكن الصوت الجميل أقلق قلبها فجرت دموعها برفق على خديها وبللت غصن زهرة كانت تمسك بيديها .

لكن أبواب الحصن لم تفتح وصاح رجل مسلح من أعلى الجدران :

« ارجع إلى الوراء ! لا يدخل هنا إلا جنود محاربون » .

واستمرت أوديتا تنظر من النافذة إلى الخارج ، وأذنت للزهرة أن تسقط من يدها وكانت مبللة بدموعها . فسقطت عند قدمى صاحب الصوت الغرد الجميل ، فرفع هذا عينيه ، فلما رأى شعر الصبية قبّل الغصن وقفل راجعاً . وكان فى رجوعه هذا يقف أثر كل خطوة يتلفت إلى الخلف . وبعد أن اختفى أوت أوديتا إلى مخدعها فصلّت كثيراً وحمدت ربها حمداً لا تدرى دواعيه . وأحست أنها سعيدة وحلمت ليلتها حلما جميلا ، فإنها رأت الغصن الأخضر الذى ألقت به إلى الشاب مرة أخرى . وأخذ أمل يبزغ بزوغاً هادئاً جميلا يرتفع على أجنحة ملونة ، ويرتدى حللا خضراً .

ولاح لها شبح يقول : « أوديتا . أنا ملاك الحب . أنا الذى بعثت إليك بالشاب (لوا) هذا الصباح — إننى أطوف بالعالم أفتش فيه عن أفئدة فارغة وقلوب وحيدة ، أجمع بين الذين يتنهدون فى الوحدة . إنى أزور كوخ الفلاح كما أزور قصر اللورد ، وأجمع ما بين عصا الراعى وصولجان الملك . ألقى بالورود عند أقدام الذين أوليهم الحماية والعطف ، وأغدق عليهم من عطاياى كل غال وجميل ، فأحفز قلوبهم إلى الخفقان فرحين . إن منزلى لبين الخضرة النامية والغابات الجميلة . أرقد فى الشتاء إلى مواقد النار المتألقة وأطمئن إلى غرف الأزواج الهانئين . أملأ المسالك التى أمر بها رقة وقبلا . فلا تبتئسى أكثر مما ابتئست يا أوديتا ، فأنا ملاك الحب جاء يخفف مآقيك » .

ثم اختفى عن الأنظار متوارياً فى الأزهار التى انطوت على نفسها فصارت براعم . وأنت يا نانو تعرفين ولا ريب أن لملاك الحب وجوداً حقيقيًّا . فانظرى إليه يرقص فى بيتنا وارثى للتاعسين من الناس الذين لا يؤمنون بوجوده .

وإذ نهضت أوديتا فى اليوم التالى كان شعاع من النور قد امتد إلى غرفتها

فأضاءها ، وكان تغريد الطيور يملأ برجها العالى ونسيم الصباح قد اختلط بأريج الزهر ، فنهضت سعيدة ، وأنفقت نهارها كله تغنى ، يملأ صدرها أمل أن يتحقق ما تنبأ به ملاك الحب . وكانت أحياناً ترمى بنظرها إلى الحقول ، تبتسم لكل طير وتحس فى نفسها شيئاً يدفعها إلى السعادة ويحملها على أن تصفق بيديها فرحاً ومرحاً .

فلما كان المساء انحدرت إلى القاعة الكبرى فرأت الكونت أنجيوراند وإلى جانبه فارس يصغى بحرمة ، يستمع إلى ما يقول . فجلست أوديتا إلى الموقد هادئة مطمئنة تعمل بمغزلها .

وكانت أثناء هذا ترمى ببصرها من آن إلى آخر إلى الفارس الغريب ، فلمحت الغصن الأخضر مرة ثانية وقد قبض عليه بإحدى يديه ، وكانت هذه إلى جانب صوته العذب أمارة كافية تتعرف منها إلى (لوا) . وتملكها فرح كادت تضج منه ، ولكنها انحنت إلى الأمام نحو النار تخفى فرحها وتحرك النار بقضيب طويل من الحديد . وكانت ألسنة اللهب تندفع إلى الأعلى فى معرض رائع حين تطايرت منها شآبيب مضيئة بدا من بينها ملاك الحب باسماً ؛ ثم نفض عن ثوبه الحريرى ذرات الحطب المحترقة وقد بدا كأنه حب الذهب الخالص ، وانسل إلى القاعة لا يراه الكونت فوقف خلف الشاب والشابة بينما مضى المحارب القديم يروى قصته مفصلة ، عن معركة مروعة خاضها ضد الأعداء . وهنا أخذ ملاك الحب يقول فى لهجة منخفضة ناعمة :

« فليحب أحدكما الآخر يا ولدىّ ، ولتتركا للشيوخ ذكريات الشباب ورواية الأقاصيص الطويلة . فلتكن قبلاتكما الأصوات التى تمتزج بأصوات قطع الحطب المحترقة ، إن فى الوقت متسعاً لتخفيف آلام الشيخوخة بذكريات

ساعات الصبا الجميلة . إذا أصاب أحدكما الحب فليصمت فإن نظرة واحدة تغنى عن حديث طويل . فليحب أحدكما الآخر يا ولدىّ وليترك الثرثرة للشيوخ . »

ثم غطى الشابين بجناحيه فغمرهما غمراً لم يستطع معه الكونت الذى كان ماضياً فى أحاديث القتل والحرق والتدمير أن يرى القبلة الأولى التى طبعها لوا على جبين أوديتا الخائفة .

وهنا يجب علىّ يا نانو أن أخبرك شيئاً عن جناحى ملاك الحب الجميلين . فقد كانا شفافين كالزجاج رقيقين كأجنحة الفراش . لكنهما إذا ما أرادا إنقاذ حبيبين من خطر عادا كثيفين معتمين يواريان ما خلفهما ويردان سمع من يسترق أصوات القبل . ومضى الشيخ يتحدث عن حروبه ، بينما كان (لوا) يداعب حبيبته الجميلة أوديتا .

فما أعجب هذين الجناحين ، فقد علمت أن الشابات يكتشفنهما من أنفسهن ، كما قد علمت أن كثيرات منهن قد أخفين أنفسهن عن عيون أجدادهن . أو ليس هذا صحيحاً يا نانو ؟

فلما أنهى الكونت حديثه الطويل اختفى ملاك الحب فى النار ، ومضى لوا لطيته يستودع شاكراً سيده ، ملقيا بقبلة وداعية إلى أوديتا . وكانت هذه قد امتلأت بالفرح حتى حلمت ليلتها تلك ، بجبال كسيت بالزهور وأنيرت بملايين النجوم ، يربو ما يرسله أى واحد منها من النور على ما ترسله الشمس كلها .

ونزلت فى الصباح الثانى إلى البستان تطفر من مكان إلى مكان . وفى أحد هذه الأمكنة صادفت رجلا مسلحاً فانحنت له ، وكادت تتعداه لولا أنها رأت الغصن الأخضر فى يده مبللا بالدموع . فعرفت حبيبها لوا إذ جاء إلى القصر مرة أخرى متخفياً من جديد . فأجلسها إلى ضفة ذات عشب ، قريبة

من عين ماء ، وحدق فى عينيها وحدقت فى عينيه وقد أصابهما فرح شديد ، فقد كان يرى أحدهما الآخر الآن فى رائعة النهار . وغردت البلابل فأحس المحبان أن ملاك الحب يطيف بهما فى الجو قريباً منهما .

ولست أرغب فى أن أخبرك ماذا سمع الشجر ذلك الصباح ، لكنه تمايل طرباً لما رأى من منظر الشابة والشاب ، يجلسان هناك يتحدثان ساعة بعد أخرى حديثاً طال حتى تمكن بلبل أثناءه من أن يبنى عشه فى شجرة مجاورة .

وفجأة سمعا وقع خطى الكونت أنجيوراند فى البستان ، فاختلج المحبان ، لكن ماء العين الجارى صفق تصفيقاً عذباً — أعذب من قبل ، ونهض ملاك الحب من المجرى البلورى تعلو وجهه ابتسامة فحجب المحبين بجناحيه ووقف بينهما وبين الكونت الذى أخذه العجب مما يسمع من صوت لا يرى له مصدراً .

وقال ملاك الحب وقد عانق صديقيه فى صوت منخفض عذب :

« أنا الذى أحمى الحب . أنا الذى أعمى أبصار الذين نضب معين الحب من قلوبهم وأصم آذانهم . فليحب أحدكما الآخر أيها العزيزان لا يخاف شيئاً . فليحب أحدكما الآخر حيث كنتما . إننى معكما أرعاكما . أرسلنى الله إلى الناس فلا ينالكما ضر بما يهزءون من قداسة الحب . إن الله قد وهبنى هذين الجناحين الجميلين وقال اذهب فاحمل قلوب الصغار على الطرب . فليحب أحدكما الآخر فى رعايتى وحراستى . ثم اختفى بعد أن جمع قطرات الندى من الورق ، فإن هذه القطرات طعامه الوحيد ، واحتمل معه أوديتا ولوا فى عناقهما الأبدى . »

وستسألينى ماذا صنع المحبان بعد ، أيتها العزيزة . لست أستطيع أن أخبرك فإنى أخشى ألا تصدقينى وأن تثور نفسك من سعادتهما . ولكنك تحبين الاستطلاع أيتها الخبيثة ، فسأرى فى أن أشبع رغبتك هذه .

فلتعلمى أن ملاك الحب حوم هنا وهناك حتى جن الليل ، فلما أراد أن يفصل بين المحبين امتنعا عليه حتى بذل لهما وعوداً خلابة . ويبدو أنه قال لهما قولا جميلا أضاء وجهيهما وفتح عينيهما واسعتين مما أصابهما من سعادة . ولما فرغ من كلامه ورضيا بما وعد لمس جبهتيهما بعصاه السحرية .

وفجأة يا نانو ! آه ما أوسع عينيك ، وما أكثر ما أقدر أن تضربى الأرض بقدميك الصغيرتين إذا أزمعت أن أكف عن حديثى . إن (لوا) وأوديتا تحولا إلى غصنين أخضرين كبيرين جميلين إلى حد لا يقدر عليه إلا بنات الخيال ، وهناك تعانقا جنباً إلى جنب والتفت أوراقهما ثم نجمت منهما أوراق رائعة ، وأخذا يزدهران دائماً ويمزجان شذاهما بالندى .

أما الكونت أنجيوراند فيقولون إنه أمضى الوقت يعزى نفسه بما يروى كل مساء من قصص مكررة معادة .

والآن يا نانو سنسأل الشجر الأخضر حين نغدو إلى الحقول ، عن الزهر الذى نستطيع أن نرى فيه ملاك الحب .

قد يكون فى هذه القصة مغزى بسيطٌ أيتها العزيزة . غير أنى أفضيت به إليك على كل حال ، وها نحن نجلس أمام هذا الموقد وأنا أشد ما أكون رغبة فى أن يلهمك الله حب هذا الشاب الذى روى لك هذه القصة ، وإلى نسيان مطر كانون ، هذا الذى يسفع النوافذ .

ثراء ... وشَرَف

لا يدرى جارتها كيف هبطت بينهن ، فإنها لا تخبرهن شيئاً عن نفسها على الرغم من كثرة ترددهن عليها . ولكنها جميلة الطلعة للغاية ، بارعة اللفتات للغاية ، حلوة الحديث للغاية .

وكان مجيئها إلى البيت منذ شهرين ، لا يزورها أحد يمكن أن يقال عنه إنه قريب لها ، وليس لها إلا ابن سيئ التربية يناهز العاشرة ويقضى يومه كله فى متابعة صبيان الحى . يضرب هذا ويجرح ذاك .

وكان الوقت وقت عطلة مدرسية ولذلك قرر الجيران أنها لم تجد له مدرسة لائقة تستريح بإدخاله إليها منه ومن شكايات جاراتها عليه .

وكانت السيدات المجاورات شديدات السؤال عن هذه السيدة الجميلة الرشيقة القديرة من هى ؟ ابنة من ؟ ومن أية بلدة ؟

كان اسمها (بديعة) وكان اسم ابنها (نهاد) ، وربما كانت من بيروت فإن فى نبراتها شيئاً من نبرات أهل بيروت فى الحديث ، ومع هذا فلا يمكن القطع بشىء فقد تكون على لباقتها قديرة على شىء من إمالة أهل بيروت فى تحدثهم — كانت فى نظر جاراتها قادرة على هذا لو أرادته وقادرة على ما هو أعظم منه .

وذهب استطلاع جاراتها عبثاً ، فقد كانت ألبق منهن جميعاً فى إدارة الحديث وتحويله بحسب رغبتها إلى أى اتجاه شاءت . وكانت ساحرة يدخان

عليها ليعرفن شيئاً عنها فيخرجن وهن بها أجهل من ذى قبل ، وأكثر حبًّا وإعجاباً مع ذلك من ذى قبل .

« لا بد وأن تكون ابنة عائلة طيبة كبيرة » — قالت إحدى جاراتها لأختها وهى تحدثها . فأجابت الأخت وقد أمنت على قول أختها :

« نعم ولا بد وأن تكون غنية ، فلولا ذلك ما تعلمت هذا العلم العالى ولما ظهرت بهذا المظهر الفاخر الأنيق . »

وأصاب الجارات إعياء موقت وقفن بعده عن البحث العابث حول هذه السيدة الجديدة الغامضة . ومضى على ذلك شهران آخران حين داهم بيت بديعة شرطى شرس يسأل عن أهل الصبى نهاد — أنبأتها بذلك خادمة جارتها ، والخادمة ترتعد خوفاً . فما راع اثنتين من جاراتها كانتا آنئذ عندها إلا أنها قامت ففتحت الباب وأقبلت على الشرطى تحدثه برباطة جأش .

« وما لنهاد يا حضرة الجاويش أرجو أن تخفف من حدتك ؟ »

فتراجع الشرطى خطوة عاثرة إلى الوراء وقد علت وجهه صفرة ملحوظة وقال : « إنه الآن يا سيدتى فى مركز البوليس فقد كان يقطع الشارع فداسته سيارة و . . . . » فقاطعته بهدوء عجيب : « وهل جرى له شىء ؟ هل مات أيها السيد ؟ » فتجرأ الشرطى وقال :

« كلا يا سيدتى فقد داس الدولاب ساقه فكسرها وها هو فى مركز البوليس مع السائق . وقد أرسلنى الضابط لكى أحضر أباه وقد وصفوا لى هذا البيت فمعذرة . . . » فقالت له : « انتظر قليلا فسأخرج معك بنفسى إلى المركز لأرى ما قد حدث ؟ »

وخرجت بعد ان ارتدت معطفاً أسود ناعماً تكاد تتميز من تحته تقاطيع أعضائها المتناسبة .

فمضى الشرطى أمامها مطرقاً وهى من خلفه تطفر كما يطفر الظبى ، وقد خلّت أحد نقابين لها فبدا وجهها من تحت نقابها الآخر ساحراً فتاناً .

ودخلت نقطة البوليس ثابتة الخطى فرأت نهاداً مطروحاً فى أحد أركان المكان يبكى وجرحه يدمى ورآها فعلى بكاؤه . لم تلتفت إليه بل مضت رأساً فسألت عن الحادث فوجم كل من كان فى المركز من رجال الأمن . ثم تصدى لها فى اضطراب واضح ضابط مهيب الطلعة أصلع الرأس مرتفع الجبين واضح المحيا يناهز الأربعين من عمره فقال :

« سنرسل ابنك هذا يا سيدة ، أليس ابنك هو ؟ نعم ، سنرسله إلى طبيب الحكومة لفحص أولىّ ، وها نحن قد أجرينا مع السائق التحقيق القانونى وسنبلغك قرار المحكمة بهذا الشأن »

فصوبت إليه نظراً نافذاً كأنه السهم وأخذت تقول بهدوء :

« أما السائق يا سيدى فليس لى به حاجة وقد عفوت أنا عنه لينطلق فى سبيله إذا كان فى وسعكم أن تأذنوا له . وأما الصبى فحبذا لو وضعتموه فى المستشفى أيضاً فليس له أب وأنا لا أقدر على نفقاته » .

قالت هذا مسرعة فتململ رجال الأمن وتفرقوا من أماكنهم وتركت مركز البوليس مسرعة لا تلوى على شىء . ثم عادت بعد قليل فألقت فى أذن الضابط الأصلع شيئاً وانصرفت .

وقال الذى رآها فى الليلة التالية إنها كانت تمشى مشياً هيناً وقد ارتدت فستاناً أزرق طويلا ومشت يرافقها ضابط المركز الأصلع يلبس بدلة سوداء اللون وحذاء لماعاً .

وقالت تحدثه :

« أريد أن تذهب بى الآن إلى أقرب مكان أستريح فيه . إن أعصابى قد

توترت ونفسى قد اشرأبت ولن يفرج كربتى هذه إلا أن أطلق لنفسى العنان إلى أبعد ما يمكن . لا أريد أن أتقيد بشىء فقد طالما تقيدت . يكفينى كل ما مر — يكفى ، فإن شبح الماضى ليروعنى . »

قالت ذلك ثم تنهدت ونظرت إلى وجه الضابط فقرأت فيه آيات الانكسار . ومال بها إلى ركن كالذى أرادت ثم جلسا إلى طاولة . . . وأخذت تتحدث :

« لا أعترف بك أنت نفسك ابن عم لى . ويحكم عائلة غنية لا تستطيع أن تعول سيدة منها توفى عنها زوجها . أليس ابنى ؟ أريد أن أقتله ! ! آكله وألوك قلبه بأسنانى ؛ ألستم أهلى ؟ وددت لو كان لى من القوة والجرأة ما أذهب به بحياتى . نعم حياتى . ما الذى خلفه أبوه حتى تعتمدوا عليه ؟ ألست ابنتكم ، ويحكم ، جناة ! ! لن تظفروا بى سأمضى إلى النهاية ولن يحول دونى حائل . سأروى ظمأ نفسى . لن أقف عند حد أستطيع الوصول إليه . سأنتقم من نفسى ومن العالم كله . إن الذين أوصلونى إلى هنا هم الباغون الأنذال — أنتم . كلا لن أتزوج من أحد . »

ثم استطردت مسرعة :

« لا ألومك أنت فأنت موظف ودخلك محدود ، وأبوك نفسه لايجود عليك . لكن أنا ، أليس عمى ؟ أتموت فتاة وعمها لا يعرف مبلغ ثروته الضخمة . ويحكم أليس لكم قلوب ؟

« سأنتقم من نفسى . أموت . كان لى أن ألوث شرفكم قبل أن أموت . لكن لا ، أنا المعنية بالأمر لا أنتم .

« أترى إلى هؤلاء الفقراء الصعاليك : خير منكم . لقد عشت بينهم وعرفتهم . ألم يمت أبوه ؟ هل قتلته ؟ ألم ينقض أجله ؟ لم لم تسمحوا لى بالعمل ؟ لماذا لمس نفوسكم الشرف يوم عُلّمت ؟ الشرف : سأتركه لكم ؟ هل هو ابنى

وحدى فقط ؟ وسأذهب بعيداً جداً عنكم . لا يهمك أن تعرف إلى أين . أضعك خلفى وأهيم . أنا لا أدرى إلى أين . ولكنى سأسحق قلبى بنفسى . »

ثم ترنحت فتلقاها بيديه فأجهشت بالبكاء ، فجعل يبكى مثلها . وفى أثناء هذا انطلقت من بين يديه إلى حيث لا يعلم إلى الآن .

وعاد الجارات يتحدثن عن بديعة . عاشت بينهن أربعة أشهر ثم اختفت لا يدرين إلى أين ذهبت .

يوم الميلاد

قسطنطين ترنييف

كان المكتب الذى يعمل فيه إيفان ديمتريفتش صاخباً جداً . فقد كان طوال النهار مكتظاً بالعملاء ، كما كان عرضة لكثير من المراجعين الذين لا تتورع ألسنتهم عن الكلام السليط . وكان إيفان يعانى أوجاع القلب وتجتاح حياته أحداث جارحة أليمة . كان مقعده يجاور النافذة ، فإذا اشتد الصخب واللغط ألقى بقلمه ونظر من النافذة إلى الجو الماطر ، وإلى الساحة المغطاة بالثلج ، المنحدرة إلى ضفة النهر الهاجع تحت دثاره الجامد ذى الحواشى المصفرّة ، وإلى الغابات القاتمة القاصية .

ولكنه اليوم لم يجد متسعاً من الوقت ليجتلى مناظر الطبيعة ، فقد اجتمعت لجنة التموين أمس ، ومن المحتم الآن أن تُعبأ جميع الموارد على عجل ، وأن يقدم تقريراً فى الغد عن مصادر الوقود .

وكان إيفان أول من أمس قد تلقى نبأ رسمياً بأن ابنه الوحيد متيا قد قتل فى المعركة . لقد جاءه هذا النبأ مع البريد الأخير ، ففض الغلاف فى غير اكتراث ، فلما شرع يقرأ ما كان مكتوباً فى الشريحة الصغيرة التى تحمل طابع وزارة الدفاع ، أخذت الحروف فجأة تمور أمام عينيه . كانت الغرفة صاخبة كالمعتاد ، فإن بعض السيدات بطاقياتهن الحمر كُنّ آخذات فى جدال حار مع أحد الكتاب . وهدأ توّاً كل شىء ، وبدت الطاقيات الحمر طائفة كالأشباح على بعد شاسع .

وبذل إيفان جهداً عظيما لكى يُهدئ روع نفسه ويقرّ الحال فى نصابه، فتعالى الضجيج فى الغرفة إلى ما كان عليه من قبل .

ولم يلتفت أحد إلى إيفان أو يعنى به ، بل ظل الناس منهمكين فى أعمالهم الخاصة . وهنا دخل إلى المكتب أحد ذوى الحاجات ليستعلم عن شىء ، ففتح إيفان له السجل وقضى حاجته ، لكنه عجب أيما عجب إذ رأى أن شيئاً لم يتغير ، وأن الناس والأمور ظلت كما هى ، ونظر إلى ما حوله فرأى الجدار الأخضر ذا الرقعة المعهودة ، ورأى النافذة التى تليه من اليمين كما هى ، بما يعلوها من الثلج .

فغمرته للحال موجة من الحزن الذى لا يفتر ولا يجدى فيه العزاء ، وانفجر عن تنهدة ، ثم رفع رأسه وثبت عينيه فى السقف . وهنا دخل بيزوف رئيس قسم الموظفين وأقبل نحوه فألقى إليه بكلام لم يعِ إيفان منه شيئاً ، فزوى بيزوف الساخر إحدى عينيه الصغيرتين وقال فى صوت مرتفع :

« أحلام النهار أيها الصبى . . من تكون التى تفكر بها يا ترى .. أرجو أن لا تكون مروسيا ! زوج طوال هذه السنوات وما زلت تحلم بامرأة . الأفضل أن تكون على حذر وإلا أعلمتها » . ثم طعن بيزوف إيفان مازحاً فى أضلاعه .

فنظر إيفان إليه بعيون ساهمة . آه زوجته يجب أن يخبرها . وكيف يستطيع أن يفعل .. لقد كانت عليلة خلال بضعة الأيام الأخيرة . وقعت مريضة قبل السنة الجديدة بقليل ولم تُشف مما ألمّ بها إلا البارحة ، فاستأنفت عملها . ولقد خضعا معاً قبل هذا إلى قلق خفى لم يفض أحدهما به إلى صاحبه ، فإن متيا لم يكتب منذ بعيد ، وإنهما ليقتربان من حادث ذى أهمية خاصة : أن عمر متيا يبلغ العشرين فى الأسبوع القادم .

كان مولد متيا دائماً أعظم أحداث السنة . ولم تنِ العائلة عن الاستعداد المستمر له قبل حلوله بزمن ، فكان الأبوان يبتاعان الهدايا وكانت الأم تصنع

كعكة الميلاد الخاصة ، وكان متيا نفسه يشترك فيفاجىء الأبوين مفاجأة لطيفة . وقد مضت سنتان الآن كان الأبوان خلالها يحييان هذه الذكرى دون متيا نفسه . لكنه كان دائماً على كل حال يبعث بتحرير ، فإذا ما جلس الأبوان وضيوفهما إلى المائدة ركزا التحرير الذى وجهه إليهما بخط يده إلى جوار كعكة العيد .

وكان هذا التحرير العزيز يتلى بالطبع فى صوت عال بضع مرات أثناء المساء فيصغى إليه كيريل إللّش ، وهو صديق قديم للعائلة ، إصغاء عميقاً ويسرّح شاربه الضخم الذى وخطه الآن شىء من الشيب كما يمسح من آن إلى آخر دمعة تنحدر من عينيه الشهلاوين النافذتين . ثم يتلفت حوله يفتش عن شىء يكسره توطيداً للطالع السعيد . كان يفعل ذلك كل عام منذ كان متيا طفلا صغيراً . أما الآن فإنها الحرب وإن ما يكسر لنادر جداً ! !

وكانت ماريا نقولا يقنا تجهز نفسها لعيد متيا الميلادى مرة أخرى ، لكن ليس من تحرير هذه المرة .

... وتطلع إيفان إلى ساعة الجدار . كانت الثانية وسيكون بعد ثلاث ساعات فى بيته فترقبه ماريا وقد أعدت مائدة العشاء .. وسيدخل البيت و ....

وتنهد تنهداً ثقيلا ثم انعطف إلى عمله . فلما نظر إلى الساعة مرة أخرى كانت الرابعة . ما أعجل ما يمر الوقت اليوم !

وانتهى اليوم . فما كان أحب إليه لو أن شيئاً يحجزه : اجتماع أو مؤتمر . لكن لا فإن الكتبة أخذوا يخلون أماكنهم وفى بضع دقائق يفرغ المكتب ويظل وحيداً . وجلس بلا حراك حتى أغلق الباب من خلف آخر موظف . ثم حاول النهوض ، لكن ساقيه تراختا من تحته فوقع على كرسيه ومال برأسه إلى الطاولة واسترسل فى حزن بالغ . فلما انكشف حزنه نهض وأخذ يتأهب للمضى

إلى بيته . وشعر أنه أهدأ من ذى قبل ، ولعله يهون عليه الآن أن يسوق النبأ إلى زوجته .

مضى إيفان إلى البيت من حديقة المدينة كما اعتاد أن يفعل ، وكانت الأغصان مشرئبة يعلوها ثلج ناعم . وانحاز عن الطريق الرئيسى يطيع هواه ، فانتهى إلى باحة صغيرة كانت قد نظّفت مؤخراً من الثلج ، فجلس فيها ونظر حوله فما كان أشد تأثره حين رأى كل شىء أليفاً عنده قريباً إلى قلبه عزيزاً عليه . فعلى المقعد الذى يجلس عليه الآن اقترح الزواج على ماريا منذ سنوات عديدة ، وكانت أزهار الكستنا قد تفتقت براعمها فتراءت له الأزهار الكبيرة أشبه بالشموع وقد أضاءت تلك الباحة . وكان الهواء مفعماً بالرائحة الزكية التى تنشرها الأعشاب كما كان يتجه من النهر صوبه نسيم منعش ندىّ ، وذكر أنه كان قد جلس إلى المقعد نفسه بعد ذلك بعام أو بعامين هو وزوجته ، ومتيا إلى جوارهما . وتخيل متيا يبلغ الثالثة من العمر ثم الرابعة ، يطفر ويلعب فى هذه الحديقة نفسها . ثم رآه غلاماً يمشى فى الطرقات ، ثم يافعاً ذا نظرات حالمة وملامح مرهفة .

ومرت الأيام والحياة مرها المألوف عاماً بعد عام ، وتنقلت الطبيعة من فصل إلى فصل ، وتغيرت آمال هؤلاء الناس البسطاء ورغائبهم . ثم ذكر إيفان أنه مر بهذه الحديقة فى أحد أيام الصيف المنصرم وتخطّر أثناء ذلك ما تورد هذه الحديقة إليه من الأفكار ، فوقع أسير خيال صور له الوقت الذى تنتهى فيه الحرب فيتهادى متيا فى هذه الطريق نفسها مع الفتاة التى يحب . ثم تراءى له تحت الشجرة الوارفة نفسها رفيق آخر يقف هناك فتنظر إليه ماريا وينظر إيفان وهما يقتعدان المقعد نفسه — ينظران فى زهو وخفة إلى الرفيق الصغير الجديد وهو يتخلّق ؛ وتراءت له الحياة وهى تفيض فتجود بحياة أخرى أغلى وأثمن

من حياته هو ؛ ثم تراءت له الحياة كلهامطردة الفيضان فى جدول بطىء عميق عذب غير عنيف . أما الآن فإن كل شىء قد تحطم . . إن الجدول قد جف وغشيت يد الموت كل شىء ...

وكان قلب إيفان فى جوفه أشبه شىء بالرصاص . فإن عليه الآن أن يذهب إلى البيت وأن يطعن قلب زوجته بمدية ماضية .

ولقد بلا إيفان مبلغ شجاعتها ومبلغ ما تستطيع أن توارى حزنها وتجد الصبر والعزاء تشيع بهما السرور فى نفوس الآخرين .

كذلك كان الحال دائماً . أقض مضجعيهما صمت متيا الطويل ، ولكن كلاهما جاهد جهاد الأبطال ليخفى ما أحس به من الآخر . وقالت له منذ قريب : « إن من الناس من لم يسمع أشهراً شيئاً ، وإن منهم من لم يسمع من أول الأمر ، فعلينا أن نلوذ بالصبر » .

وتبادلا فى الصباح قبل الشروع فى العمل كلمات عن الاستعداد الواجب لميلاد متيا . واختلفا على غير عادة فى مسألة ، فقد ألفا أن يدعوا الأصدقاء لقضاء المساء عندهما ، ولكن ماريا اقترحت أن يحتفلا بالعيد وحدهما هذه المرة ، فقد تغيرت الأيام . أما إيفان فقد رأى أن المرء فى مثل هذه الأوقات العصيبة يستطيع أن يجد العزاء والراحة عند أصدقائه الخلّص . لكن ماريا التى كانت تعانى بقايا مرض ألحت على رأيها . فاتفقا على أن يدعوا كيرل إيللش وحده .

وبعد قليل نهض إيفان ومشى متهادياً إلى البيت ، فلما مر بأبواب الحديقة الصغيرة شق عليه أن يفهم كيف مر من هذا المكان منذ أقل من تسع ساعات ، حين كان يقطع الطريق نفسه إلى عمله ذلك الصباح . وأحس بأنه متعب هرم . لم تبق إلا خطوات حتى يصل إلى البيت . وكان من قبل يقطع المسافة

دون أن يفكر فيها . أما هذا المساء فقد بدا له الطريق طويلا لا حد لطوله ، وأن رجليه مثقلتان بالرصاص وأن نفسه يتحشرج كأنما ينوء بثقل عظيم . وكان المارة ينظرون إليه فاحصين ، فلما انعطف عن الزاوية رأى بيته الصغير الأسمر بنوافذه الثلاث ورأى السياج الخشبي الواطئ يعلوه الثاج ، وقد مال بأغصان التفاح . وقدر ، فصمم أن لا يخبرها اليوم ، فلعل غداً أفضل ، أو لعل يوم مولد متيا نفسه يكون أفضل ، وعندئذ يرى ما يصنع ، فإنه لم يستطع أن يحرمها فرحة ذلك اليوم ، فليبق يوماً جميلا فى أيامها أو ذكرى يوم جميل على أقل تقدير . وسيكون المجال ذا سعة فيلقى إليها بالنبأ العظيم وقتاً من الأوقات . لا داعى إذن للسرعة ، بل لعله أحكم ألا يعلم كيرل اللش شيئاً . إنه رجل حساس ، فإذا علم الخبر انهارت قواه .

فلما أبرم هذا شعر براحة . ودخل البيت فى خطى خفيفة ، وأعد نفسه لمقابلة زوجته دون تجهم . لكن مرآها الأصفر وخزه وخزة أليمة . لله ما بدت مريضة مُعْياة حتى فقدت عيناها الزرقاوان الجميلتان لمعانهما ! ولله ما أعجب أن لم ير هذا من قبل . إن مرضها قد ذهب بها ذهاباً . وبدل أن تأخذ الأمر على علاته أضافت إلى مشقاتها مشقات أخرى . تناولت غداءها مسرعة ثم خرجت فى وقتها قبل أن يستطيع اعتراض سبيلها أو الاحتجاج عليها . ومضت الأيام ، فكان مولد متيا كلما اقترب أوحى إلى إيفان إحساساً عنيفاً بأن ذاك سيكون أفجع أيامه . ولم يدر فى الواقع كيف يمكن أن يحمل المصيبة أو ينهض بكأس متيا ويشرب نخبه ، دون أن يفضح أمر نفسه .

وتخيل أن ذلك اليوم قد لا يأتى إلا وتكون آلامه قد خفّت بعض الشىء . لكنها على العكس قد زادت . لعل ذلك لأنه احتملها وحده ، فإن الصمت لا يطاق حين يعتلج قلب المرء بالحزن . كان عليه أن يشترك فى العبء مع

إنسان آخر ، إنسان لا يكون وقع النبأ عليه قاسياً جداً . فمضى إلى كيريل اللش ، فبكى الرجلان بكاء مراً فى بيت كيرل ووافق كيرل على أن الأم يجب ألا تعلم حتى يمضى يوم المولد .

وفيم السرعة ..

وكانت صورة متيا مرتكزة على طاولة كيرل فنظر إيفان فقال : « إنه صورة من مروسيا » . ثم أردف وهو يضحك بمرارة « يقولون إن الأبناء الذين يشبهون أمهاتهم يسعدون » !

وحدق كيرل بعينيه العميقتين فقال : « لا أدرى شيئاً من ذلك ولكننى أدرى أن أى شاب يشبه امرأة مثل ماريا يكون قد كتبت له الأمور العظام » . ثم زفر من أنفه فى حس مسموع ، وقال :

« ولقد أشبهك فى هذا أيضاً فإنى أعتقد أنه لم يكذب فى حياته مرة واحدة » .

« أجل » : قال إيفان فى رقة : « كان كذلك منذ نعومة أظافره » .

قال كيرل : « ذلك جزاء التربية الحسنة أيها الصديق » .

« لا أدرى جزاء أى شىء . لقد أوقعنى أنا نفسى أحياناً فى موقف معيب . فأنت تعلم كيف يتجاوز الإنسان مرات عن كذبة بيضاء تفرط منه وهو لا يعلم . فلو وقع لك ذلك مرة كان لزاماً على متيا أن ينظر إليك بعينيه النافذتين المعروفتين ، فتجد نفسك وقد غمرك الحياء ، كأنك طالب مدرسة . ولقد كان دائم الانهماك والاستغراق فى أفكاره ، وكنت أعجب ، ماذا يدور فى ذهنه يا ترى ، لم يفض بمكنونه إلى أحد حتى إلى أمه مع أنه كان مخلصاً لها متعلقاً بها ، شديد التعلق » .

وحدق إيفان فى صورة الابن بهدوء . كانت العينان كبيرتين مليئتين

بالتوثب . أما الشفتان فزمومتان بشدة . والآن أغلقتا إلى الأبد ، ولن يعلم قط ما كان يراود عقل ابنه .

وأخذ يوم الميلاد يدنو رويداً رويداً . وكان تفكيره فى أنه سيضطر إلى أن يبوح بسره المظلم العميق فى ذلك اليوم يملؤه رعباً . لم يكن بينه وبين امرأته خلال حياتهما المشتركة الطويلة سرما ، فتمنى على الله أن لا يحل ذلك اليوم الراعب . ولكن اليوم الراعب حل أسرع مما توقع . وفى الصباح هنأ إيفان وماريا أحدها الآخر بيوم مولد ابنيهما تهنئة رقيقة ، ثم نفر إيفان إلى عمله وقد أحس بأن عبئاً ثقيلا قد انحط عن كاهله لأن المهمة الأولى قد انقضت . أجل إن ماريا لم تبرق عيناها الذابلتان ولم يتفتح محياها بالسعادة المعهودة ، لكنها بدت فى وضع ينم على صبر متكبر . إنه يوم ميلاد متيا ، لكن ليس من تحرير إلى الآن . وانقضى بسرعة شديدة نهار الشتاء القصير ذاك ، وأقبلت الساعة الرهيبة . واستدعى إيفان كيرل أثناء عودته إلى البيت ، فقد شعر بأن لا احتمال له على دخول البيت وحيداً ذاك المساء ، ولا على الجلوس إلى مقعده على مائدة الميلاد دون صديق يدعمه .

فلما أقبل على البيت هنأ زوجته مرة أخرى وقبل شفتيها الباهتتين .

وقدم إليها كيرل باقة من الزهور وانتقل بسرعة إلى الحديث عن الطقس.

وشربوا نخب متيا ونخب البلاد ونخب الجبهة . ومضى كل شىء فى سبيله السوى . وُضع على المائدة مصباح غشى بغطاء من الحرير الأزرق وفرش على الأرض بساط وشى بالألوان احتفاء باليوم العزيز الغالى . ونسقت الزهور فى إناء تجاه صورة متيا . وكانت الليلة صافية الأديم ، فانسابت من النوافذ حزمة من شعاع القمر اتخذت سبيلها إلى الأرض .

وأخذوا يتحدثون على المائدة شجوناً من الحديث لا يكادون يذكرون متيا . وفى هذه الأثناء نهض إيفان ليساعد زوجته على رفع ما على الطاولة .

فخطا نحو ضوء القمر النافذ إلى البساط ، وانفجر فجاءة عن تنهدة عميقة وبدأ جسمه يختلج كأن أحداً لكمه لكمة عظيمة فى صدره ، فسقط على أقرب كرسى إليه ، فأسرعت إليه زوجته وأسرع صديقه ، لكنه غطى وجهه بيديه وأخذ يبكى بكاء الطفل وينشج فى حرقة نشيجاً متداركاً .

« متيا الحبيب ، متيا الحبيب ، قد مضى ! ! »

ثم عاد إلى نفسه ، وتحول فى انكسار بالغ إلى ماريا يريد أن يعزيها ، فوجدها قائمة إلى جواره تحمل فى يدها زجاجة الدواء وتنحدر على خديها الغائرين دموع غزار .

« يكفى .. يكفى يا فانيا » . همست بذلك فى نعومة ورقّة . أما كيرل فوقف عند النافذة ينظر ساهماً إلى التلال وقد غطاها الثلج بلون فضى ، ويمسح شاربه ، وقد أخذت الدموع تبلله فى سرعة لا يستطيع أن يجاريها .

« منذ أسبوع علمت بالنبأ » — نطق إيفان بهذا ثم توقف فجأة...« لكن لم أتمالك ... »

فمضت ماريا إلى الخزانة دون أن تنبس ببنت شفة ، واستخرجت تحريراً من مؤخرتها ثم قالت :

« هذا هو تحرير متيا ، التحرير الأخير . لقد ورد قبل رأس السنة الجديدة بقليل ، وطلب إلى أن أتلوه عليك فيما بعد ، هذا هو » . فأخذ إيفان التحرير ليقرأه ، فارتعشت يداه ارتعاشاً شديداً ، فتناوله كيرل منه ووضع نظارتيه على عينيه ، وأخذ يتلو فى صوت مرتفع . كانت التلاوة مضطربة . نعم ، وكان صوته أول الأمر ثابتاً لكنه بدا فيما بعد وكأن الكلمات تتوقف فى حلقه ، فهز رأسه الأبيض ومسح نظارتيه ، وتابع يتلو تلاوة واضحة فى صوت غضوب :

« أمى الحبيبة » .

تلك كانت بداية التحرير .

« اقرئى هذا التحرير وحدك أولا ، وستعرفين السبب فيما بعد . إنى أكتب إليك فى هذه الأيام المرحة — أيام الانتصار .

« إن الشمس لمشرقة ، تغمر المعسكر وتغمر مخدعى وتغمر فراشى ، وأنا أكتب . كل شىء حولى أبيض بياض الثلج . الجدران بيضاء وكذلك السقف وأغطية المخادع . ومن النوافذ أيضاً يبدو كل شىء أبيض ، والدخان يتصاعد متعرجاً أبيض من سطح أبيض . كان يملأ ذهنى طوال الصباح صورة نوار التفاح الأبيض هذا فى حديقتنا . أن كل عرق دقيق فيه لينبض بالحياة ، وإن كل بزرة لمليئة بنسم جديد . وإنها لتنتصب فوق أغصانها الرازحة إلى الأرض فى شىء من الحزن . وفيما أنا أراقب الدخان يتثنى برفق ومرح إلى السماء أجد نفسى تمتلئ بخواطر الموت والحياة .

« لقد جُلت فى حلبة الموت قرابة سنتين وبرزت أقابل الموت وجهاً لوجه مرة ومرة ، ولكننى الآن لن إخطئه مرة أخرى .

« لن يكون هذا التحرير طويلا لأنه يستعجلنى ، وان يكون منسجماً لأنه يهيجنى . أما عن الموت فسأحدثك بعد هنيهة ، فإنى الآن أود أن أتحدث عن الحياة أيتها الأم العزيزة .

« كنت أتعلق بأهداف أثيرة كثيرة . ولم أكن أدرى ما إذا كنت أحقق جزءاً ضئيلا منها لوكتب لى أن أعيش الحياة العادية ، بمداها العادى . كنت أظن أن الفشل والمستقبل الغامض الأليم ينتظراننى . لكن أمنية واحدة كانت آثر عندى وأعز من كل أمنية . كنت أزمع القيام بعمل عظيم . عمل تشكرنى بلادى من أجله دائماً أبداً ؛ عمل يحمل أبى ويحملك أنت على الفخر بى . تلك هى السعادة الكبرى فيما أحسست التى تجعل الحياة عندى جديرة بأن تكون حياة .

« فلما بلغت العشرين من عمرى أدركت أن حلمى لم يتحقق . فلقد رأيتنى شابًّا عاديًّا مثل غيرى من ملايين الشباب ، لم يكتب له شيء غير عادى . إن مجال التخصص الذى اخترته — التاريخ والفلسفة — لم يفسح طريقاً إلى المجد . إنه لم يفسح أملا قريباً على كل حال . وكان الموقف محزناً لكنى لم أستطع منه إفلاتاً . وبقيت أمنيتى فى الحياة بعيدة المنال .

« والآن تجيئنى هذه الأمنية طائعة مختارة ، فلقد قمت بعمل عظيم ، عمل تقدسنى بلادى من أجله بعد موتى وتفخران به أنتما أيها الوالدان العزيزان . ولقد أعلم الآن أن من تضحيات المرء التى يقدر عليها جميعاً ، ليس أعظم من تضحيته نفسَه فى سبيل بلاده . أقول ذلك أيها الحبيبان لا لأعزيكما ، فليس هذا التحرير إلا اعتراف قلب محب ، قلب يطفح الآن فرحاً . وسيتوقف هذا القلب قريباً عن الخفقان ، لكن آخر خفقاته ستكون مفعمة بالسعادة تشع عليكما وعلى بلادى ، سعادة تدوم بعد أن تكون خفقات قلبى قد انتهت . إنى أحب إليكما أيضاً أن تستشعرا من هذه السعادة شيئاً .

« وإنى لأعلم أيها العزيزان أن الألم سيغشى سعادتكما بادئ الأمر وإنى لأخشى أن يؤثر الخوف فى قلب أبى ولذلك أكتب لك أنت أولا يا أماه . فلقد كنتِ أقوى دائماً وأصبر ، فلتمهدى الطريق له . أعلم أنكما ستذرفان دموعاً حرى وأنكما ستبكيان بكاء مرًّا وأن فؤاديكما سيفرغان من الشوق إلى ، لكن لا تجزعا أيها العزيزان فإنى سعيد حقًّا .

« ستعرفان من الناس تفاصيل ما وقع لى ، وسيدلونكما على قبرى . وستزورانني مسرعين تبكيان على مثوى ولديكما لأن ذلك حق الأبوة والأمومة المرّ . أما الفرح لذلك والافتخار بذلك فحق الأقلين المجيد .

« ولقد أحببت بلادى حبًّا حارًّا دائماً . أحببت أنهارها وأوديتها ، كما

أحببت كل وريقة من حشائشها وتعهدت هذا الحب بدمى هذا الذى أورثتمانى . إن فى نفسى أشياء كثيرة أفضى بها إليكما . أما الآن فعسير علىّ أن أفعل ولأسترح قليلا ...

« إنى أحسن حالا الآن . لقد أرادت الممرضة أن تأخذ منى أوراقى التى أكتب فيها ، فرجوتها أن تتركها لى زمناً أطول . إن قواى لتهبط ، لكن السعادة تضىء نفسي .

« ما زلت أشعر بالقوة الكافية لأقول كلمات أخرى ، فسيدركنا الظلام عما قريب وسأضطجع أفكر فيكما . أراكما أمامى فى مقعدنا من البيت . وأرى المدفأة بقرميدها كما أرى الزهور التى تحبين والأريكة القديمة ذات الظهر الأحدب . ما كان أحب إلى أن أجلس معك مساء يا أمى حين كنت صغيراً ، وما أشد ما أذكر ذلك كله . وإنى لأذكر أيضاً أن يوم ميلادى يقترب ، وإنى لأعلم أن ذلك اليوم لا يحل إلا وأكون قد انتهيت . فلا تخبرى أبى أيتها الأم العزيزة حتى ينقضى اليوم . فليحس أنى معه يوماً آخر على الأقل . ولتذكرا فى ذلك اليوم الذى يمكن أن ينتشر فيه لواء الفرح فى بيتنا إن أياماً مشرقة قد تبلج فجرها على بلادنا ، لأن العدو قد جرح جرحاً مميتاً .

« وشىء آخر ، أحب أن أقول . إنى أترك بلادى دامية خربة ، أتركها وما يزال بى ظمأ للانتقام لا ينطفىء . إن مئات وآلافاً أخرى من جثث العصابات ستدنس أراضينا وأنهارنا بدمائها الخبيثة ، لكن ذلك لن ينهى الأمر . لن يخلصوا بسهولة كهذه . إن يوم العقوبة آت . ولن يكون من حظى أن أحيا الحياة الجديدة تلك التى كسبنا . لكن حظى أكبر إذ جعلت نفسى فداء هذا كله .

« وداعاً أيها الحبيبان ! إنى ألثم الشفاه التى هدتنى طريق السعادة ، أقبل

العيون التى رنَت إلىّ بحنو ومحبة ، فاذكرانى عند أصدقائنا عامة ، واذكرانى عند عمنا المخلص خاصة . »

وهنا تهدج صوت العم كيرل وتوقف ، فأتمت ماريا التحرير عنه .

« عاد إلينا إذن ابننا متيا فى النهاية » . قالت هذا ثم طوت التحرير وأضافت : « سيكون دائماً معنا » .

وانحدر القمر ، وانتهى يوم متيا ، واستمر الثلاثة يتحدثون ليلتهم الشتوية الطويلة تلك إلى الفجر حديثاً هادئاً ناعما كأنهم يخشون أن يوقظوا أحداً .

808.83:A51A-[illegible]
العامري ،محمد اديب
شعاع النور وقصص اخرى
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030490